لطائف الأوراق

قراءات في كتب من التراث العربي

حازم عوض

الكتاب: لطائف الأوراق .. قراءات في كتب من التراث العربي.

الكاتب: حازم عوض

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عوض ، حازم

لطائف الأوراق .. قراءات في كتب من التراث العربي./ حازم عوض

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٢٠ – ٦٨٢٣ ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٦٠٤ / ٢٠٢٠

لطائف الأوراق

قراءات في كتب من التراث العربي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

يشكل التراث الأساس المتين للهوية الثقافية للأمة، فبدونه تتفكك داخلياً، وقد تندمج ثقافياً في أحد التيارات الحضارية والثقافية العالمية القوية .فتراثُ أيِّ أمَّة هو تاريخُها وكيانها، وأمَّة بلا ماضٍ وبلا مستقبل، والحِفاظُ على التراث وعلى التاريخ هو الحِفاظ على الكيان والهُويَّة، على الخُصوصيَّة التي منحتْنا وجودَنا بوصْفِنا أمَّة، هو الحفاظ على السبيل الذي يضمن استمرارَنا ونهضتَنا مِن غفوتنا. فنهضة الأمم تقوم على ركيزتين رئيستين، أولاهما تراث تلك الأمة، والثانية قدرتها على الاستفادة من المنجز الفكري والعلمي الذي حققه الآخرون.

ويرجع أصل كلمة تراث في اللغة إلى مادة (ورث) التي تدل على "ما يتركه الإنسان لمن بعده"، كما جاء في قوله تعالى: "فهب لي من لدنك وليًّا يرثني ويرث من آل يعقوب" [مريم:٥،٦].

أما التراث بمعناه العام فهو ما خلَّفه لنا أسلافُنا من عقائدَ وعلوم ومعارف، وثقافاتٍ وعادات وتقاليد، وتجاربَ وخِبرات، وآثارٍ وفنون... إلى غير ذلك.

ويتمثل التراث الفكري للأمة في الآثار المكتوبة التي حَفِظها التاريخُ كاملةً أو مبتورة، فوصلتْ إلينا، وهذا التراثُ ليس له حدود

تاريخيَّة معيَّنة، فكلُّ ما خلَّفه مؤلِّفٌ من إنتاج فكرى بعد حياته يُعدُّ تراثًا فكريًّا، وعليه فهو" كلُّ ما وصل إلينا مكتوبًا في أيِّ فرع من فروع العلوم والمعارف".

وللأسف ، فإن ما وصل إلينا قليل قليل، أو كما يقال غيض من فيض، فقد تلف وضاع وتبدد أغلبه، لكن ما تبقى وهو نقطة من بحر التراث العربي يكفي لإرواء العطش، و قد عرف تراثنا العربي تنوعا معرفيا كبيرا، إذ اهتم العلماء العرب والمسلمون بتأليف الكتب في شتى فروع المعرفة، على نحو أدى إلى إثراء تراثهم وإكسابه صفة التنوع والاختلاف. وكان لهذا التنوع في ميدان التأليف أسباب موضوعية نذكر منها: حثّ الإسلام على العلم والتعلم والإقبال على المعرفة، واتساع رقعة الدولة الإسلامية وامتدادها الزمني الطويل، وانفتاح المسلمين على كثير من الحضارات، واحتضانهم لكثير من أبناء تلك الحضارات.

وللتدليل على ذلك يكفي مثلا أن تفتح كتاب"كشف الظنون عن أسامي العلوم والفنون"، لحاجي خليفة، لتقرأ أسماءَ نحو مائتي عِلْم أو فن؛ ألف فيها العرب كتبا كثيرة، كعِلم آداب البحث والمناظرة، والآلات الحربيَّة، والآلات الرَّصديَّة، وعلم انبساط المياه، وعِلم الأوزان والمقادير، والبيزرة، والبيطرة، وتدبير المدينة، وتدبير المنزل، وتركيب المداد، والجبر والمقابلة، والجِراحة، والجغرافيا،

والجهاد، والحكمة، والرمي، والرياضة، والسياسة، والسيمياء، والشروط والسجلات، والصيدلة، والطبخ، والفتاوى، وقوانين الكتابة، والكحالة، والكيمياء، ومراكز الأثقال، والمرايا المحرقة، والمساحة، والمعادن، والمعمى، والملاحة، والنبات، والهندسة، والهيئة...

هذه بعض أسماء علومهم، وهي قلٌّ من كثر – كما يقولون – أو غيض من فيض، وقد تكفَّل حاجي خليفة في كتابه بتوضيح مدلولاتها، وتقديم دراسات مُوجَزة عنها". ولم تكن تلك هي المحاولة الوحيدة أو الأولى في إحصاء العلوم وتصنيفها، فمحاولات الإحصاء قديمة وكثيرة، ولعل أولى تجاربها الناضجة هي محاولة محمد بن إسحاق النديم في كتابه "الفهرست" ، الذي يقدم فيه رؤية شاملة للتراث العرب الإسلامي حتى عصر مؤلِّفه؛ إذ يحوي لائحة مصنفة ومفصلة بأسماء المؤلفين وعناوين كتبهم، بالإضافة إلى الترجمة لهم والتعريف بالملامح العامة لحياتهم؛ فهذا الكتاب معين لا ينضب من المعارف والأخبار التي تمنحنا تصورًا عامًّا عن حركة التأليف في التراث العربي الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. وقد قسم النديم كتابه إلى عشرة أقسام، وسمَّى كل قسم منها "مقالة"، ثم قسم كل مقالة إلى عدة فنون بلغ مجموعها ٣٣ فنًّا، ويقوم منهج النديم في التأليف على التعريف بكل علم من العلوم، ثم الترجمة للمؤلفين الذين صنفوا في هذا العلم، ثم سرد أسماء كتبهم،

ثم وصف كل كتاب وصفًا موجزًا.

المكتبة العربية

يتمثل أغلب التراث العربي والإسلامي في المكتبة العربية، والتي ترجع بدايتها إلى فجر التاريخ الإسلامي؛ عندما قامت حركة التدوين في القرن الأول، ثم انتهت إلى التصنيف في القرن الثاني، وازدهرت كثيراً في القرن الثالث ثم الرابع، وقد كتبت معظم المؤلفات بلغة أدبية رفيعة مما يرتفع بالذوق الأدبي والثروة اللغوية للقارئ؛ الذي لابد أن يتمتع بمستوى لغوي وثقافي مناسب؛ ليتمكن من الإفادة من المكتبة العربية، التي تعتبر بمثابة بستان التراث العربي الجامع لكل زهوره ورياحينه.

لكن للأسف يعاني التراث العربي عزلة كبيرة، فالقارىء العام بعيد عنه، فليس من المعقول أن نطالب الجمهور الواسع بالارتفاع إلى المستوى اللازم للتعامل مع التراث، بل يجب تيسير التراث وتقديمه له ، و تحقيق هذا يحتاج إلى أقلام تؤمن بعقيدة الأمة الإسلامية، وتُقِرُّ بأهمية الارتكاز على جذورها الحضارية والثقافية.

ومن محاولات تقريب التراث إلى العامة تلك الجهود التي يبذلها مفر من المتخصصين المؤمنين بأهميته، فنراهم يكتبون المقالات في الصحف والمجلات عن أمهات الكتب التراثية، فالقارىء العادي الذي لا يستطيع التواصل مع كتب التراث

المحققة، وقد لا يجد وقتا أو لا يملك جهدا يمكنه من قراءة بعض الكتب الميسرة أو المختصرة، فإن مقالا وافيا عن كتاب تراثي قد يسهم في تجسير الفجوة بين ذلك القارىء وتراثه.

أوراق تراثية

إيمانا منا بأهمية ذلك قمنا باختيار ثلاثين مقالا، يتناول كل منها كتابا تراثيا، وراعينا أن يكون تناول الكتاب مختصرا فلا يشعر القارىء بالملل، وفي نفس الوقت واف وكاف فيمنح القارىء معرفة كبيرة بمضمون الكتاب وهدف كاتبه منه، كما راعينا أن تتنوع الكتب بين الميادين العديدة التي ألف فيها أسلافنا، وقد اخترنا ثلاثين كتابا هاما، قد لا يكون بعضها مشهورا، لكن كلها مهمة ومن عيون التراث العربي، لذلك أسميناه " لطائف الأوراق...قراءات في كتب من التراث العربي"، وتتنوع الكتب التي نعرض لها هنا بين الدينية الإسلامية ومنها " صحيح البخاري" والرسالة للإمام الشافعي، ومنها أيضا " معاني القرآن للزجاج" والمختصر في علم أصول الحديث لابن النفيس، وآداب السماع والوجد.. للإمام الغزالي.

ومن كتب السيرة النبوية اخترنا عروضا لإثنين من أمهات الكتب في هذا المجال وهما " أسد الغابة في معرفة الصحابة" لعز الدين الأثير و"سيرة النبي لابن هشام" ومن كتب التاريخ الإسلامي "الطبقات الكبرى" لابن سعد و"تاريخ الإسلام"للإمام شمس الدين

الذهبي، وهما من أهم مراجع القرون الإسلامية الأولى، ومن كتب التاريخ الإسلامي في العصور الوسيطة قدمنا " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ليوسف ابن تغري بردي، "اتعاظ الحنفابأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" للمقريزي، و"بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس،و "أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر" وهو من مراجع التاريخ الأندلسي.

ومن التراث الأدبي والفكري لم نكن نستطيع إغفال أهم كاتبين عرفهما التراث العربي وهما أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وأبوحيان التوحيدي،فعرضنا لموسوعتيهما الهامتين "الحيوان" و"الإمتاع والمؤانسة" .. وكذلك أثبتنا مراجعة ضافية لكتاب "لسان العرب" وهو من أهم المعاجم اللغوية العربية، من تصنيف ابن منظور الأنصاري، وقد قيل عنه أنه جمع فيه أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعا، وهو يُعتبر أشهر المعاجم العربية، لضخامة مادته، ولاشتماله على مجموعة كبيرة من الشواهد الصحيحة التي استقاها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومن أمثال العرب وأشعارهم.

أما كتاب "الكامل" للمبرد، وهو من أصول الأدب وركنًا من أركانه، وقد أقبل طلاب الأدب على قراءته، ومنهم من شرحه ومنهم من علق عليه ، ويعد الكتاب من أواخر ما كتب المبرد، ومن أهم

كتبه عامة لأنه حوى طائفة كبيرة من مختار الشعر والنثر والأخبار، وفيه الكثير من التفسيرات اللغوية، والآراء النحوية ، ويتميز الكتاب أيضًا بكثرة القضايا اللغوية درسًا وتناولاً واستشهادًا في مختلف صفحات الكتاب ، فهو يشرح كل نص شرحًا يتحرى الدقة والعمق والتفريع.

ومن كتب الرحلات وقد اشتهر بها الرحالة العرب اخترنا رحلة ابن بطوطة وكتاب "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" لمحمد بن عمر التونسي وهو أهم مصدر للتعريف بأحوال إقليم "دارفور" في السودان، ثم كتاب" مروج الذهب" للمسعودي وهو كتاب في الجغرافيا والتاريخ والرحلات. ومثله كتاب "المسالك والممالك لابن حوقل ".

ولم نغفل عن الجانب العلمي فالتراث فاخترنا من بين كتبه "الرسالة النيروزية" لابن سينا، و "الباهر في الجبر" للسموأل، وقد ختمنا قطوفنا بكتابين رأينا فيهما مسك الختام، فقد عنى أسلافنا بتهذيب الأخلاق والنفوس، وألفوا كتبا كثيرة في هذا المجال جمعت بين علوم الأخلاق والنفس فضلا عن تقوية الوازع الديني لدى قارئها، واخترنا من هذا الجانب كتابين، هما " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه" ثم مداواة النفوس والأبدان لابن حزم الأندلسي صاحب طوق الحمامة، و"مداواة النفوس" هو الاسم الذي

اشتهر به كتاب "الأخلاق والسير"، وهو في نفس الوقت عنوان أحد أبواب الكتاب، وفيه يذكر "ابن حزم " بعض عيوب "النفس" مثل "الكبر" و"الغرور" ويقول "لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً" ولا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ويذكر بعض عيوب نفسه في نوع من ممارسة النقد الذاتي ويبين كيفية معالجته لأدواء نفسه فيقول: "كانت فيَّ عيوب فلم أزل بالرياضة. واطلاعي على ما قاله الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء في الأخلاق ومداواة النفس، أعاني مداواتها حتى أعانني الله عز وجل على أكثر ذلك .

حازم عوض

صحيح البخاري

من المعلوم أن الحديث النبوي لم يجمع ولم يدون إلا على رأس المائة الثانية ، وذلك بفضل جهود محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) وهو أحد كبار التابعين الذين كان لهم اهتمام برواية الحديث، لكن مناهج تدوين الحديث لم تستقر إلا عند الجيل الثالث من المدونين وتمثلت كتب الصحاح الستة التي صنفت على أساس قبول الأحاديث الصحيحة بعد تصفيتها وفق القواعد التي وضعها علماء الحديث، وهذه الكتب الستة حسب ترتيبها التاريخي هي صحيح البخاري وصحيح مسلم (وهما أصح كتابين بين السنة) وسنن ابن ماجه وسنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن النسائي.

والبخاري صاحب أول هذه الكتب هو "أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة" فارسي الأصل، ولد في مدينة بخاري (١٩٤هـ/ ٨٠٩م) وقد اعتنق جده الثاني الإسلام على يد والي بخاري، اليمان الجُعفي" من قبيلة جُعفي اليمنية، فاكتسب ولاءها ولذلك كان يطلق على "أبو عبد الله" لقب "البخاري" نسبة إلى بلده و"الجعفي" نسبة إلى هذه القبيلة.

وقد نشأ البخاري نشأة إسلامية وكان أبوه من علماء الحديث في بخاري، ويضعه العلماء بين رجال الطبقة الرابعة من التابعين، وقد

وجه ابنه "أبو عبد الله محمد" إلى الحديث منذ صباه الباكر فرحل إلى كافة الأرجاء الإسلامية سعياً وراء رواة وحفاظ الحديث، وامتدت رحلاته ست عشرة سنة لقي خلالها أكثر من ألف راوٍ للحديث جمع منهم أكثر من ستمائة ألف حديث، عاد بها إلى بخاري ثم عكف عليها واضعاً نصب عينيه قواعد البحث المنهجي الثابتة في علوم أصول الحديث وذلك من أجل استخراج الأحاديث الصحيحة، واستبعاد ما لم تثبت صحته، وقد روي عن البخاري أنه قال: "صنفت كتاب الصحيح لست عشرة سنة، وخرَّجته من زهاء ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة بيني وبين الله".

و قد قسم البخاري كتابه إلى كتب وأبواب: فأولاً قسمه إلى سبعة وتسعين كتاباً ثم قسم الكتب إلى أبواب فرعية بلغت (٣٤٥٠) باباً وأول كتاب في "صحيح البخاري" هو كتاب الوحي، ثم كتاب الإيمان ثم كتاب العلم وهكذا توالت الكتب حتى الأخير منها وهو كتاب التوحيد، ويلاحظ أن بعض أبواب وكتب البخاري لا يضم إلا حديثاً أو حديثين، وبعضها فيه آية من آيات القرآن الكريم وليس فيه حديث.

وقد وقف العلماء أمام هذه الظاهرة ورأوا أن البخاري قام أولاً بوضع خطة للكتاب ووضع عناوين لهم ثم أخذ يملأ هذه الأقسام بما يصح عنده من أحاديث تتصل به، فإذا لم تصح عنده أحاديث

في بعض الأبواب تركها خالية.. لكن هذه الملاحظة لم تنل من دقة البخاري فقد وضع لنفسه شروطاً صارمة وألزم نفسه بها ومن أهمها أنه لم يقبل إلا الحديث الصحيح بمفهومه الاصطلاحي الذي اتفق عليه العلماء في علم "مصطلح الحديث" ولهذا لم يقبل الحديث الحسن رغم أن غيره من علماء الحديث يقبلونه، مثل "الترمذي" الذي يعد كتابه "السنن" أصلاً في معرفة الحديث.

والشرط الثاني الذي اشترطه البخاري في رواته هو توافر أمرين هما المعاصرة والسماع، فلكي يكون الراوي عنده مقبولاً لابد أن يكون معاصراً لشيخه، ولابد أن يكون متصلاً به سامعاً لما يرويه عنه، وهو شرط لم يشترطه من علماء الحديث إلا البخاري.

وعلى أساس هذا الشرط رتب البخاري رواته درجات، وقد كان البخاري واسع العلم برواة الحديث وقد ألف عنهم كتاباً أسماه "التاريخ الكبير" ترجم لهم ثم اختصر كتابه في "التاريخ الصغير" وكان يقول عن نفسه: "قل لي اسما في التاريخ أقل لك قصته: وقد ساعد البخاري على ذلك قوة ذاكرته التي شهد له بها جميع معاصريه، فقد قالوا عنه إنه يستطيع حفظ أي كتاب عن ظهر قلب لأول قراءة.

وعلى أساس الشروط التي وضعها البخاري لصحة الحديث لم يضمن صحيحه من بين الستمائة ألف حديث إلا تسعة آلاف

حديث، استبعد ابن حجر العسقلاني المكرر فيها عندما أعد كتابه "فتح الباري في شرح صحيح البخاري" فانخفض العدد إلى ٢٧٦١ حديثاً، لذلك كله استحق البخاري تلك الصفة التي وصفه بها العلماء وهي: "شيخ الحديث، وطبيب علله في القديم الحديث".

الرسالة للإمام الشافعي

"الإمام الشافعي" هو محمد بن إدريس بن العباسي بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف، وبذلك فإن نسبه يلتقي مع النبي في عبد مناف.. ولد بغزة سنة ١٥٠هـ "ويقال ولد بعسقلان"، مات أبوه وهو بعد طفل صغير فانتقلت به أمه إلى مكة، ليعيش بين أهله، وفي مكة حفظ القرآن ودرس الفقه والشعر، أما الحدث الأهم في حياته فهو عثوره على مخطوطة لكتاب "الموطأ" للإمام مالك فحفظ الكتاب ثم سعى للقاء الإمام مالك أمام دار الهجرة سنة ١٧٠هـ ولزمه حتى مات سنة ١٧٩هـ.

ونظراً لعلم "الشافعي" بالقرآن والحديث فكانا من أسانيده في الإفتاء.. وقد قال عنه "ابن حنبل": "ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى" وكان الشافعي محباً للرحلات.. كانت رحلته الأولى من غزة إلى مكة، والثانية من مكة إلى المدينة ليلتقي الإمام مالك، ثم سافر مرات إلى العراق و، ويقال أن السبب هو تكليف أصحابه من المالكية له بالرد على الأحناف، فسافر إلى العراق قصد "محمد بن الحسن الشيباني" فتعرف على كتبه وكتب الأحناف.

وقرأها قبل أن يرد عليها، وقد قال الشافعي عن ذلك: "كتبت

عن محمد بن الحسن وقر بعير كتباً، ولولاه ما أنفتق لي من العلم ما أنفتق"، وقيل أن محمد بن الحسن لم يعظم رجلا مثل إعظامه للشافعي.

وفي عام ١٩٩هـ قصد الشافعي مصر، وقوبل بحفاوة باعتباره تلميذا للإمام مالك، إلى أن ظهر منه ما خالف الإمام مالك فيه.. وكتب في اختلافه مع مالك ويذكر "ابن النديم" في "الفهرست" أن مؤلفات الشافعي وهي كثيرة منها "الحجة" و"الرد على بن الحسن" وهما في الرد على كتب العراقيين و"الرسالة" و"اختلاف الحديث" و"السنن" وغير ذلك.

ورغم طول القائمة إلا أن "ابن النديم" وغيره ممن ترجموا للشافعي "كتاب الأم" أشهر كتب الشافعي ويرجح بعض دارسيه المحدثين أن تسمية "الأم" ليست للشافعي وليست كتابا واحدة بل هي اسم أطلقه مريدو الشافعي في مصر على مجمل كتبه، لذا ذكر ابن حجر العسقلاني أن: عدة كتب "الأم" مائة ونيف وأربعون كتابا وأن سبب هذه السمية هو الربيع الجيزي.

أما كتاب الرسالة فقد كتبه الشافعي مرتين الأولى في مكة وهو شاب، وكتبه استجابة لطلب عبد الرحمن بن مهدي بأن يضع له كتاباً في معاني القرآن، فوضع له الرسالة، وبعدما استقر له المقام بمصر أعاد كتابة "الرسالة" وبهذا الكتاب الفريد صار الشافعي واضع أصول

علم الفقه، وذلك بإجماع من ترجموا له.

بدأ "الشافعي" كتابه "الرسالة" بمقدمة أسماها "خطبة الكتاب" ذكر فيها أن القرآن فيه ما أحل الله وما حرم.. وبعد الخطبة تناول في باب مستقل موضوع "بيان كتاب الله لما جاء به من أحكام العبادات" وتناول فيه مراتب البيان الخمسة وهي كما يقول الشافعي: ما أبانه الله لخلقه نصاً، مثل جمل فرائضه في أن عليهم صلاة وزكاة وصوما (...) ومنها ما أحكم فرضه بكتاب وبين كيف هو على لسان نبيه، مثل عدد الصلاة وأوقاتها، ومنها ما سن رسول الله مما ليس فيه نص حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله (..) ومنها ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلي طاعتهم في الاجتهاد، فإنه يقول تبارك وتعالى "وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم".

وبعد ذلك تحدث الشافعي عن النسخ وحكمته وعن الناسخ والمنسوخ، وذكر أن الله فرض فرائض أثبتها، وأخرى نسخها تخفيفاً عن عباده، وبين أن السنة ليست ناسخة للقرآن، بل هي تابعة له.. وبعد ذلك عدد "الشافعي" الفرائض التي أحكم الله فرضها بكتابه، وبين كيف يكون القيام بها على لسان نبيه، فالسنة هي التي بينت عدد الصلوات وعدد ركعات كل منها وكيفية أدائها.. ثم انتقل إلى باب العلل في الأحاديث التي يوجد في القرآن مثلها نصاً، وتلك

التي يوجد مثلها معنى، وتلك التي جاءت بأكثر مما في القرآن، والتي ليس منها شيء في القرآن.. كما تحدث عن علوم الحديث وعن العلم بعامة في باب مستقل.

والشافعي بهذا الكتاب يضع علم أصول الفقه ويبتدعه على غير مثال سابق، وأسس به مذهبه المعمول به في مصر وغيرها منذ ما قبل وفاته عام ٢٠٤هـ وحتى الآن.

تهذيب الآثار للطبري

الطبري هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، وقد اشتهر بمؤلفه الكبير في التاريخ وله كتب أخرى شهيرة في الفقه والسيرة منها "كتاب الرسالة وقد وصفه على غرار كتاب "الرسالة" للإمام الشافعي، وله في الفقه أيضاً، "البسيط في أحكام شرائع الإسلام" وقد مات سنة ٣١٠هـ قبل أن يتمه، ومن كتبه التي لم يكملها كتابه الذي نتناوله اليوم وهو "تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأخبار "وقد فقد أغلب الكتاب ولم يبق منه إلا النذر اليسير، وقد اهتم بجمعه وتحقيقه العلامة الراحل "محمود محمد شاكر" وقد ظهر محققاً أحد هذه الأجزاء الباقية وهو "مسند علي بن أبي طالب".

وفي مقدمة التحقيق ذكر المحقق: "إن أبا جعفر حين يفرغ من ذكر اختلاف العلماء، وذكر حججهم في اختلافهم يتبعه بصواب القول عنده، أي بمذهبه هو في المسألة، وحجته في صواب ما يذهب إليه، على الأصول التي قررها في كتابه "الرسالة" وهذه الأصول هي ذكر ما صح عنده سنده من الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وترك ذكر ما لم يصح عنده سنده.. وإذا ذكر ما لم يصح سنده فإنما يذكره لتأكيد حجة ما وليس للاستشهاد به.

ومن الأصول عنده أيضاً أن يفصل القول في الآثار الصحيحة إذا اختلفت في ظاهرها ليجمع بينها على وجه اليقين حيث يخرجها مخرجاً صحيحاً.. هذا عن منهجه في وضع الكتاب أما محتوى الكتاب نفسه فقد ذكره، "تاج الدين السبكي" في كتابه "طبقات الشافعية"، فقال: "ابتدأ ابن جرير الطبري تصنيف كتاب "تهذيب الآثار" وهو من عجائب كتبه، ابتدأه بما رواه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه– مما صح عنده سنده، وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه، وما فيه من الفقه والسنة واختلاف العلماء وحججهم، ما فيه من المعاني والغريب منه "مسند العشرة وأهل البيت والموالي، ومن مسند ابن عباس "قطعة كبيرة" ومات قبل تمامه.

وقد أفاد المؤلفون المسلمون من هذا الكتاب كثيراً، فمنهم "ابن حجر العسقلاني" الذي اعتمد على هذا الكتاب في وضع كتابه "تهذيب التهذيب" واعتمد عليه أيضاً في "فتح الباري" وأفاد منه "ابن التركماني" في كتابه "الجوهر النقي في الرد على البيهقي" وممن ذكروا الكتاب "النديم في الفهرست" و"الخطيب البغدادي" في "تاريخ بغداد وغيرهما، وقد أجمع الكل على أن كتاب "تهذيب الآثار" لا سابق له في موضوعه، إلا أن صاحبه مات قبل أن يتمه.

وقد ذكر "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" أن الطبري كان ينصح أصحابه وتلاميذه بقراءة كتابيه "البسيط" و"التهذيب" وقال

عن التهذيب: "كتاب يتعذر على العلماء عمل مثله وتصعب عليهم تتمته وقال ابن كامل: ولم أر بعد أبي جعفر أجمع للعلم ولكتب العلماء، ومعرفة اختلاف الفقهاء، وتمكنه من العلوم منه، لأني أروض نفسي في عمل "مسند عبد الله بن مسعود" في حديث منه، نظير ما عمله أبو جعفر، فما أحسن عمله ولا يستوي لي" وبعد فلقد أدى أبو فهر بجمعه وتحقيقه لما تبقى من "تهذيب الآثار" خدمة جليلة للتراث العربي.

كتاب "التوحيد" لأبي منصور الماتريدي

شهد القرن الرابع الهجري تحولاً كبيراً في علم الكلام بانتصار مذهب أهل السنة على المذاهب الكلامية الأخرى وخاصة مذهب الاعتزال، وذلك في أرجاء العالم الإسلامي، ففي العراق انفصل الأشعري عن المعتزلة وفي مصر فعل "الطحاوي" نفس الشيء وفي بلاد": ما وراء النهر حذا حذوهما "أبو منصور الماتريدي"، لكن الطحاوي انصرف إلى العقائد بينما لم ينصرف كل من الأشعري والماتريدي عن علم الكلام فأصبحا كما يقال "رئيسا على الكلام عند السنة.. الأشعري وهو شافعي المذهب، والماتريدي وهو حنفي.

و"الماتريدي" هو الإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، و"الماتريدي" هنا نسبة إلى بلدة "ماتريد" من أعمال "سمرقند" وإن كان نسبه يمتد إلى أبي أيوب خالد بن زيد بن كليب الأنصاري، الذي نزل عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) حينما هاجر مكة إلى المدينة.. ولم يتفق المؤرخون على عام مولد الماتريدي، وإن كانوا قد أجمعوا على أنه توفي عام **٣٣٣**هـ/ **٩٤٤**.. وتلقى "الماتريدي" العلم في حلقة عكفت على رواية الكتب المنسوبة للإمام أبي حنيفة ورسائله ووصاياه في أصول العقائد.

وقد حمل "الماتريدي" ذلك كله ورواه عن شيوخه لكنه حملها

بمعارفه ورؤاه الخاصة، فكانت هذه المؤلفات على يديه بمثابة "بيان" لعقيدة أهل السنة وما يصح الاعتقاد به"، وتحولت هذه العقيدة على يديه إلى "علم كلام" وأصبح المتكلمون على مذهب الإمام "أبي حنيفة" في بلاد ما وراء النهر (نهر جيمون بسمرقند) يسمون بـ "الماتريدية"، بينما اقتصر اسم أبي حنيفة على الأحناف المتخصصين في مذهبه الفقهي.

والاطلاع على عناوين كتب "الماتريدي" يدل على أنه كرس حياته للدفاع عن السنة، كما تدل على سعة معارفه وإلمامه بعلوم الدين من فقه وتفسير وعلم كلام.. فقد رد على المعتزلة في عدة كتب منها "بيان وهم المعتزلة" ورد على القرامطة في كتاب "الرد على أصول القرامطة"، وتعقب معاصره المعتزلي "الكعبي، وألف كتباً في الرد عليه منها "الكعبي" ومنها "رد وعيد الفساق للكعبي" و"رد أوائل الأدلة للكعبي" وغير ذلك.

أما مؤلفاته في أصول الفقه فمن أهمها كتاب "الجدل" و"كتاب "مأخذ الشرائع" وله في التفسير كتاب "التأويلات الماتريدية في بيان أصول أهل السنة وأصول التوحيد" وهو غير كتاب "التوحيد" الذي نعرض له اليوم.. وقد ضاعت أغلب مؤلفات "الماتريدي" بسقوط سمرقند ولم يبق منها إلا النذر اليسير، وحتى ذلك لم يحقق ويطبع باستثناء كتاب "التوحيد" الذي حققه د. فتح الله خليف

وأصدره في القاهرة عام ١٩٧٠.

يبدأ "الماتريدي" كتابه "التوحيد " بفصل "إبطال التقليد" وهو في ذلك لم يخرج عن إجماع السنة والمعتزلة على بطلان التقليد وفساده، إذ اشترطوا في صحة الإيمان أن يكون قائماً على الاستدلال.. ويعرض "الماتريدي" نظريته في المعرفة، ويناقش قيمة معارفنا ومعيار الحق في المعارف التي تصل إلينا عن طريق سبل العلم بحقائق الأشياء وهي عند الماتريدي ثلاثة "الحس والخبر والعقل" ويميز الماتريدي بين نوعين من الخبر هما المتواتر وينبغي النظر فيه حتى يثبت صحته، والخبر عن الرسل وهو جدير بالوثوق فيه وتصديقه.

ويدلل الماتريدي على حدوث "الأجسام" بنفس أدلة المعتزلة ولا يختلف عنهم إلا في أنه يفسح للخبر مكانل في التدليل، ويستخدم الماتريدي هذه الأدلة في التدليل على وجود الله، "فإذا كانت الأجسام لا تجتمع ولا تفترق بنفسها، ولا في قادرة على إصلاح ما فسد منها، وإذا كانت الطبائع المتضادة المتنافرة لا تجتمع بنفسها، فلابد من قاهر يقهرها على غير طبعها، فثبت أن ذلك كله بعليم حكيم.. ويستدل "الماتريدي" على وحدانية الله بفكرة تناهي العالم، إذ لو جاز أن يكون هناك أكثر من إله واحد لأمكن افتراض عدد لا نهائي من الآلهة ولكان لكل منهم عالمه.

ويرى الماتريدي أن مجيء الرسل بالآيات البينات شاهد على وحدانية الله، إذ لو كان لله شريك في ملكة لمنع الرسل من إظهار آياتهم.. وأخيراً فرؤية الله عند الماتريدي واجبة سمعاً بلا كيف والمؤمنون يرون الله في الآخرة ولا يرونه في الدنيا بينما الكفار محرومون من رؤيته في الآخرة لقوله تعالى: إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون وختم "الماتريدي" كتابه بفصول رد منها على آراء المجوس والزنادقة من دهرية وثنوية.. والماتريدي بذلك يسبق ابن النديم في الفهرست، ويسبق القاضي عبد الجبار في "المفتي"، ويسبق الشهرستاني في "الملل والنحل" ويسبق ابن حزم في "الفصل في الأهواء والملل والنحل".

معاني القرآن للزجاج

مؤلف هذا الكتاب هو "أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل" وقد لقب بـ "الزَّجاج" لأنه كان يعمل بخراطة الزجاج.. ولد الزجاج ببغداد عام ٢٤١هـ وكان يعمل ويتلقى العلم في نفس الوقت إذ نشأ في أسرة فقيرة، ولما قدم "المبرد" إلى بغداد تاقت نفس "الزجاج" لأن يتلقى العلم عليه وكان معروفاً أن "المبرد" لا يدرس العلم إلا بأجر كبير لا يقدر عليه رجل يعمل بخراطة الزجاج، فذهب إلى "المبرد" وحكي له عن أحواله واقترح أن يعلمه مقابل أن يعطيه درهما كل يوم طيلة حياتهما.

وقد وافق "المبرد" لإعجابه "بالزجاج" وحرصه على العلم وأصبح لا يلقي الدرس إذا غاب "الزجاج"، بل ورشح "الزَّجاج" لدى الأثرياء ليعلم أولادهم وبذلك اتسع رزقه، وقد اختير معلماً "للقاسم بن عبيد بن وهب" وكان أبيه وزيرا للمعتضد، ولما مات اختير القاسم وزيرا فقرب منه أستاذه فنال الحظوة والسلطة بعدما نال المال.

وقد شرع "الزجاج" في تأليف كتابه "معاني القرآن وإعرابه" سنة ٢٨٥هـ وأتمه سنة ٣٠١هـ أي عكف عليه ١٦ سنة.. وقد قامت شهرته على هذا الكتاب ولم تكن المكتبة العربية عرفت قبل هذا الكتاب كتباً في هذا المجال غير كتابين هما "مجاز أبي عبيدة"

و"معاني الفراء" لكنه امتاز عليها بتفسيراته اللغوية وإفاضته في بيان أوجه الإعراب، وأيضاً بتعرضه لمسائل أخرى غير لغوية مثل الوصية والميراث والطلاق، والرد على الملحدين والرافضة والمشبهة.

وكان له رأي في الاشتقاق طبقة في هذا التفسير. فهو يرى أن الكلمات التي تشترك في كل الحروف أو معظمها تكون لها جميعاً معنى أساس أصيل تدور كل معانيها عليه، وقد طبق هذا المبدأ في تفسيره، فمثلاً كلمة صلاة قال عنها "الصلاة من الصلوة وهي مؤخرة البعير أو الفرس، وهي ضد الجلوة التي هي مقدمة الشيء، من هنا سمي السابق مجلياً وسمي الذي يليه مصلياً: أي تابعاً للمجلي ولاحقاً له، ويقولون صلاة، أي تبعه ولحقه وصلى النار دنامنها وهكذا" وبهذا كان كتابه "معاني القرآن" معجماً لغويا واسع الجوانب شرحا وشواهد شعرية.

أما في الإعراب فهو حريص على إعراب الكلمات الغامضة، وحين يعرب الجملة يبين الأوجه العديدة المحتملة التي يمكن أن تكون عليها ويبين وجهة كل إعراب والمعنى الذي تنتهي إليه.. و"الزجاج" في حديثه عن الإعجاز القرآني لم يعن بالجانب البلاغي في الآيات القرآنية وهذا غريب على رجل صنعته اللغة والنحو، لكنه صنع صنيع "المبرد" في "الكامل" إذ يوضح المعنى المستفاد من التركيب.

ويوضح الفرق بين التعبير القرآني والتعبير المحتمل لو قدم لفظ على آخر.. وعني "الزَّجاج" أيضاً بإخبار القرآن عن الأمم السابقة وحديثه عن الكتابيين.. وللزَّجاج مؤلفات أخرى كثيرة لم يبق منها إلا (١٤) كتاباً يذكرها المؤرخون أو المترجمون للزجاج لكنهم يضعون في المقدمة كتابه "معاني القرآن وإعرابه".. والمفسرون التالون للزجاج اعتبروا شروحه اللغوية قواعد ثابتة ونقلوها عنه مثل الرازي والقرطبي وحتى الأدباء فعلوا ذلك، إذ ذكر البغدادي في مقدمة كتابه "خزانة الأدب" أنه اعتمد على "معاني القرآن" واكتفى به، وكذلك ابن منظور اعتمد عليه كثيراً في لسان العرب وكل ذلك دليل على قيمة هذا الكتاب وعلو قامة مؤلفه.

المختصر في علم أصول الحديث لابن النفيس

"ابن النفيس" هو علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي (٦٠٧هـ- ٦٩٦هـ) ألف أربعين كاتباً في الطب، وله كتب أخرى لا تقل عنها عدداً في الدين والفلسفة والبلاغة.. و"ابن النفيس" أوقف نفسه على القراءة والكتابة لذا عاش عزبا ولم يتزوج، وكان أعلم أهل زمانه فقد أحاط بفلسفة الإغريق والرومان، وآداب وعلوم العرب وقد ذكر عنه "حاجي خليفة" في "كشف الظنون" أنه وضع كتاباً أسماه "الشامل في الطب" وكان ينوي أن يتمه في ثلاثمائة مجلد إلا أنه توفى بعد أن ألف ثمانين فقط.. وأغلب مؤلفات ابن النفيس مفقودة، ووصل خبرها إلينا من الكلام عنها في كتب التراجم التي ترجمت لابن النفيس.

وقد ألزم د. يوسف زيدان نفسه بمهمة جمع وتحقيق تراث ابن النفيس الضائع وقد عثر بالفعل على بعض هذه المخطوطات وحققها، ومنها كتاب "المختصر في علم أصول الحديث النبوي، وأصول الحديث هو العلم بالقواعد التي تعين على معرفة علوم الحديث.. أما كتاب النفيس فقد قسمه إلى مقدمة وخمسة أبواب، ثم عاد وقسم المقدمة إلى فصلين في الأول منها وضع مقدمة منطقية للعلوم والسمعية والعقلية وبين أنها جميعاً تفتقر إلى علم أصول الحديث.

وفي الفصل الثاني تحدث عن تعدد أقسام الخبر الذي يحتمل الصدق والكذب، وكان هذا الفصل مدخلاً للباب الأول عن "تفضيل الكلام في الخبر المقطوع بصدقه" وهو بدوره مقسم إلى فصلين.. الأول منها "في تحقيق الكلام والخبر المتواتر" وهو خبر أقوام بلغوا في الكثرة حدا يمنع العقل توافقهم على الكذب فقولهم يفيد القطع ما داموا قد أجمعوا عليه أما الفصل الثاني فهو عن تحقيق الكلام في بقية الأخبار المفيدة للعلم"، فخبر الله عز وجل لا يشك فيه من أمن بالله وكلامه والعلم بذلك قريب من أن يكون أوليا، وكذلك خبر الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لا ينطق عن الهوى، وكذلك ما اتفق عليه مسلم والبخاري مقطوع به.

وفي الباب الثاني تحدث ابن النفيس عن "تفضيل الخبر المظنون صدقه" فأوضح أربع مراتب في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم،وتسعة أنواع للخبر، أما المراتب فالأولى منها أن يقول الصحابي "سمعت رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يقول "والثانية أن يقول: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والثالثة أن يقول عن رسول الله بينما الرابعة أن يقول: "من السنة كذا".

وفي الباب الثالث.. كيفية تحمل الحديث وروايته، وفيه يرى ابن النفيس أن تحمل الحديث عن الرواة لا يتم إلا في حدود بلوغ الراوي العشرين سنة من العمر ويعلل ذلك ابن النفيس "لأن الفهم

في ذلك الوقت أكمل مما قبله". ويتناول الباب كيفية تحمل الحديث وروايته، وفيه يرى ابن النفيس أن تحمل الحديث عن الرواة لا يتم إلا في حدود بلوغ الراوي العشرين سنة من العمر ويعلل ذلك ابن النفيس "لأن الفهم في ذلك الوقت أكمل مما قبله".

أما الباب الرابع فيتناول شروط الراوي، والجرح والتعديل، وتوابع علم الحديث وكتابة الحديث، وآداب سماع وقراءة الحديث. ورغم صغر حجم هذا الكتاب (٢٠٠ صفحة) إلا أن بعض الدارسين يعتبرونه– كما قال أحدهم: خزانة كتب في علوم الحديث "أما تحقيق الدكتور يوسف زيدان للكتاب فهو شامل ودقيق، وقد قدم المحقق للكتاب بمقدمة وافية عن ابن النفيس وآثاره وضمنها فهرسة لمؤلفات "ابن النفيس" موضحا المطبوع منها والمخطوط، والمفقود والمجهول وأيضاً المنحول، وقد حقق د. يوسف زيدان كتباً أخرى لابن النفيس منها "الوريقات" وهو كتاب في المنطق، ويتضح من خلال تصفح الفهرسة التي أعدها د. يوسف زيدان عن مؤلفات ابن النفيس مدى مكانته العلمية والفقهية.

آداب السماع والوجد.. للإمام الغزالي

كتاب "آداب السماع والوجد" كان في الأصل رسالة صغيرة صنفها الإمام الغزالي في مسألة الغناء، وهي مسألة شغلت الفكر العربي طويلاً، وأول من ألف في الغناء هو "يونس الكاتب" صاحب كتاب "النغم" الذي سبق "الأغاني" للأصفهاني بقرنين من الزمان، وسبق به أيضا كتاب "إسحاق الموصلي" عن الغناء ولم تكن الكتب كلها مبيحة للغناء، مستحسنة له بل هناك كتب أخرى حرمت الموسيقى والغناء مثل كتاب "كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع"، لابن حجر الهيثمي.

ولما عكف "أبو حامد الغزالي" على تصنيف سفره الكبير "إحياء علوم الدين" عاد إلى رسالته في "آداب السماع والوجد" ليضمنها كتابه "إحياء علوم الدين".. وهو في هذا الموضوع لم يحاول اقتناص تأويل يحل به مسألة الغناء، وإنما استلهم نصوص القرآن والحديث الشريف، فذكر أن الآية الكريمة التي تقول: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" تحمل في معناها استنكاراً للصوت القبيح، واستحسانا للصوت الجميل وبذلك لا يصح تحريم الصوت الجميل، وهو في ذلك يقول: "فإذن تأثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد

عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثامته على جميع البهائم" ويقول أيضاً: "كل ما جاز السرور به، جاز إثارة السرور فيه".

إن موقف: الغزالي "من قصية الغناء جزء من موقفه الفكري الشامل من الحياة والكون في ظل الدين، وهو لم ينكر على الإنسان المتدين حقه في التعبير الفني.. وقد قسم "الإمام الغزالي" كتابه "آداب السماع والوجد" إلى بابين: في الأول تناول اختلاف العلماء في إباحة السماع فيقول في أوله: "اعلم أن السماع هو أول الأمر، ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى الوجد ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص".

وفي تناوله لمسألة السماع بدأ أولاً بنقل المذاهب فذكر أن القاضي أبو الطيب الطبري حكى عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة ألفاظاً يستدل بها على تحريم الغناء فقد قال الإمام الشافعي في كتاب "آداب القضاء" إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر فيه فهو سفيه ترد شهادته، وكذلك رأي "الشافعي" أن صاحب الجارية يكون سفيها إذا جمع الناس لسماعها، أما "الإمام مالك" فقد نهى عن الغناء وقال إذا اشترى رجل جارية ووجدها مغنية فكان ردها.

أما "الإمام أبو حنيفة" فقد صنف الغناء من ضمن الذنوب وكذلك

"الإمام أحمد بن حنبل" روى عنه كراهته للغناء.. وبعد استعراض هذه الآراء أورد "الغزالي" آراء أخرى تميل إلى السماع ولا تحرم ثم أعلن رأيه المبيح للسماع، أما الباب الثاني وقد أسماه: "في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص، وهو في هذا الباب يقول" واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال، والله تعالى جميل يحب الجمال ولكن إذا كان الحمال في الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر، وإن كان الجمال بالجلال أدرك بحاسة القلب" لكن الغزالي لم يحل الغناء على الإطلاق بل حرمه بخمسة عوارض: الأولى: أن يكون المسمع امرأة لا يجوز النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها.

الثانية: في الآلة بأن تكون من شعار أهل الشرب كالمزامير والأوتار.

والثالثة: في نظم الصوت وهو الشعر فإن كان فيه حرام فهو حرام.

والرابعة: في المستمع وهو أن تقلب عليه الشهوة.

الخامسة: إن كون الشخص مواظباً على السماع قاصراً عليه أغلب وقته فهو يكون حينئذ السفيه الذي ترد شهادته.

الطبقات الكبرى لابن سعد

عنى العرب بالتاريخ عناية شديدة، وبعد الإسلام عنى المسلمون بتتبع أخبار السيرة النبوية فكانت الكتابة في السيرة والفتوحات الإسلامية أسبق الكتابات عند المؤرخين المسلمين، وحين جمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهد الخليفة الأموي "عمر بن عبد العزيز" في كتاب كان أحد أبوابه "باب المغازي والسير" بعدها صار علم "المغازي" من أهم ما عني به المسلمون، ثم بدأت عنايتهم بعلم آخر شديد الصلة هو "علم الطبقات وتراجم الرجال" وألفت فيه كتب كثيرة مشهورة أول ما وصل منها إلى عصرنا هو كتاب محمد بن سعد المسمى "الطبقات الكبرى" أو "طبقات الصحابة والتابعين" والطبقة كان يقصد بها ما نسميه اليوم "الجيل" وهم جماعة من الناس متقاربين في السن.

وكان الناس في عصر ابن سعد يقسمون الصحابة اثنتي عشرة طبقة كالآتي: قدماء السابقين إلى الإسلام، ثم أصحاب دار الندوة، ثم أصحاب هجرة الحبشة، ثم أصحاب العقبة الأولى، ثم أصحاب العقبة الثانية، ثم أوائل المهاجرين، ثم من حضروا بدر، ثم المهاجرون من بدر إلى الحديبية، ثم أهل بيعة الرضوان، ثم المهاجرون من الحديبية إلى فتح مكة، ثم من حضروا الفتح واسلم

بعده، وأخيرا الصبيان الذين رأوا الرسول في حجة الوداع.

وعلى هذا النهج سار محمد بن سعد في طبقاته وهذا أوقعه في خطأ التكرار، فنراه يترجم لبعض الأعلام أكثر منمرة مثل أستاذه في العلم "الواقدي" الذي ترجم له مرتين، واحدة ضمن أهل المدينة وواحدة ضمن أهل بغداد فقد كان ابن سعد يعني بالمكان عناية كبيرة ولابن سعد كتاب آخر في الطبقات هو "الطبقات الصغرى" فقد ذكر "حاجي خليفة" في كتابه "كشف الظنون" أن "محمد بن سعد" ألف كتاباً في خمسة عشر مجلداً أسماه "الطبقات الكبرى" ثم انتخب بعضه في مجاد واحد أسماه "الطبقات الصغرى".. ومؤلف كتاب الطبقات هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، ولد عام ١٦٨هـ بالبصرة وأفاد من ازدهار أجواء العلم فيها فأخذ العلم عن كثيرين منهم المغيرة بن عبد الرحمن الذي كان من ثقاة العارفين بمغازي الرسول.

وكان ابن سعد كاتباً للواقدي حيث عاش في ظله عشرين عاما يكتب عنه منذ لقيه في المدينة وحتى وفاة الواقدي حتى لقب بكاتب الواقدي، وللواقدي كتابان أحدهما في الطبقات وهو أول كتاب في هذا العلم، والآخر عن المغازي، ولابن سعد كتاب ثالث عن أخبار النبي صلى الله عليه وسلم إند ثرت أصوله مع الزمن لكن ذكره "ابن النديم" في "الفهرست" ورغم أن المترجمين لابن سعد

ذكروا أن كتابه "الطبقات الكبرى" يقع في خمس عشرة مجلداً إلا أن الكتاب المحقق والمطبوع يقع في ثماني مجلدات فقط.

الأول في السيرة النبوية والثاني في المغازي والثالث في تراجم البدريين من الصحابة (٢٥٩ ترجمة للأنصار، و١٣٤ ترجمة للمهاجرين)، والرابع في تراجم الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار (٩٨ ترجمة) والصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة (١٤٣ ترجمة) والخامس في تراجم الطبقتين الأولى والثانية من التابعين من أهل المدينة (٤٠١ ترجمة) والموالي (٨٤ ترجمة) والسادس في تراجم طبقات الصحابة والتابعتين من الكوفيين وهم تسع طبقات والسابع في تراجم طبقات الصحابة والتابعين من بقية الأمصار المفتوحة وخصص الجزء الثامن لتراجم الصحابيات من النساء.

ويضم الكتاب في مجمله ثلاثة آلاف ترجمة لم يتوقف "ابن سعد" فيها عند تتبع أخبار الأعلام بل كان ينقد ما يرويه من أخبار ويذكر رأيه فيها، فكان محققاً لما يرويه وليس مجرد راوٍ.

بالنسبة للجزء الثامن المخصص لتراجم النساء فإنه يعد دليلا على مدى ما بلغته المرأة في ظل الإسلام من مكانة سامية فمثلاً يذكر "ابن سعد" في ترجمة "أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث" أنها جمعت القرآن، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمرها أن تؤم أهل دارها، وكان لها مؤذن.

وقد وردت في الطبقات ترجمات توفي أصحابها بعد وفاة "ابن سعد" فابن سعد توفي عام ٢٣٠هـ وترجم لأحمد ابن إبراهيم الموصلي المتوفي ٢٣٦هـ محمد بن بكار المتوفي ٢٣٨هـ ولعل ذلك مرجعه أن أصحاب هذه الترجمات من المعمرين الذين عاصروا ابن سعد وكتب عنهم وأضاف الناسخون تاريخ وفاتهم إلى الكتاب في مخطوطاته المتتالية.

تاريخ الإسلام للإمام شمس الدين الذهبي

ولد الإمام الذهبي في دمشق عام ٦٧٣هـ وفيها نشأ وتلقى وعاش حتى وفاته عام ٧٤٨هـ، وذاعت شهرته لمكانته العلمية والدينية، وترك مؤلفات عديدة في التاريخ أهمها "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام" في ستة أجزاء و"تذكرة الحفاظ" في أربعة أجزاء، و"دول الإسلام"، و"أعلام النبلاء" و"العبر في خبر من غبر" وصدر في خمسة أجزاء ثم استدرك الذهبي ما فاته في العبر وصنفه في كتابين مستقلين هما "ذيل الصبر" و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" في أربعة أجزاء، كما أعد رسائل عدة أهمها رسالته إلى ابن تيمية وكل هذه المؤلفات محققة ومطبوعة بين الهند والقاهرة وبيروت والكويت.

وأهم كتب "الإمام الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي" هو كتابه الموسوعي "تاريخ الإسلام" فقد أرخ فيه الذهبي للقرون السبعة الأولى في تاريخ الإسلام وقد خصص الجزء الأول للمغازي، وقد بلغت غزوات الرسول وسراياه ثلاثا وأربعين كما يذكرها الذهبي، أما الجزء الثاني فهو في السيرة النبوية الشريفة.

يبدأ الذهبي تأريخه بشهر ربيع الأول وهو شهر الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة وأسقط من تأريخه شهري المحرم وصفر لأنهما

سابقون على الهجرة، والغريب أنه أرخ للسنة الهجرية الثانية ابتداء من نفس الشهر "ربيع الأول" بينما بدأ السنة الثالثة من شهر المحرم، وقد أرخ في هذا الجزء للسنوات الهجرية العشر الأولى والغريب أنه أكمل السنة العاشرة بشهري المحرم وصفر وهما مطلع السنة الحادية عشرة ووقف عند شهر ربيع الأول الذي توفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، ويبدو من ذلك أن الإمام الذهبي اعتبر الهجرة هي بداية التاريخ الإسلامي.

وتتوالى بعد ذلك الأجزاء الستة لهذا السفر الكبير الذي ينتهي بتمام المائة السابقة للهجرة، وهنا يثار سؤال.. فالإمام الذهبي عاش حتى سنة ٧٤٨هـ أي أدرك ما يقرب من نصف القرن الهجري الثامن لكنه أوقف تأريخه للإسلام عند نهاية القرن السابع فلماذا لم يؤرخ للفترة التي عاشها بنفسه من القرن الثامن الهجري؟ هل لأن النقل عن الآخرين مثل ابن إسحاق والواقدي وغيرهما ممن اعتمد عليهم الذهبي في تأريخه أسهل وأيسر؟ أم أنه آثر السلامة ولم يخض في أمور كانت كفيلة بجلب المتاعب مثلما حدث مع صديقه "ابن تيمية"؟ أم أن العمر لم يطل به ليؤرخ للقرن الثامن الهجري؟

لا أصل إجابة قاطعة على هذه الأسئلة لكنها رغم ذلك تبقى أسئلة مشروعة؟ ونعود إلى الكتاب تاريخ الإسلام فتقول إن أهم ما فيه هو المجلد الأول الخاص بالمغازي فيكاد يكون هذا الجزء

أشمل وأجمع وأهم مرجع عربي عن غزوات الرسول وسراياه.

ويقص الذهبي قصة هذه الغزوات سنة بعد سنة فالسنة الهجرية الأولى لم تقع فيها غزوات وفي السنة الثانية تقع غزوات الأبواء وبدر الأولى الكبرى وغزوة بني السويق.

وهكذا تتابع الغزوات حتى تأتي الوفود من كافة أنحاء الجزيرة العربية لتعلن دخولها في الإسلام والذهبي في "تاريخ الإسلام" يستقصي الروايات ويناقشها ويثبت أقوى الروايات فمثلا في غزوة الحديبية يستوثق مصادر من الصحيحين، ومن رواية الزهري عن عروة بن الزبير، وعن عدد المسلمين في غزوة الحديبية يذكر أن ابن مخرجه روى أن الرسول خرج في بضع عشرة مائة من أصحابه، وتذكر رواية شعبية عن عمرو بن مرة أن عدد المسلمين يومئذ كان ألفا وثلاثمائة، ورواية جابر أن عددهم كان خمس عشرة مائة، وهكذا أورد كل الروايات وناقشها ورجح أن العدد كان خمس عشرة مائة.. هذا الاستقصاء يدل على عظمة "الذهبي" كمؤرخ مدقق، وأخيراً، فقد قال عنه المستشرق إدوارد فاندايك: إن في كتابة تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع.

أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير

يقول الإمام "ابن حجر العسقلاني" صاحب كتاب "الإصابة في تميز الصحابة" عن كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" أن مؤلفه "عز الدين بن الأثير" جمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة وترجم فيه لسبعة آلاف وخمسمائة وخمسة وأربعين صحابياً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. أما مؤلف الكتاب فهو "أبو الحسن علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين الأثير، وقد ولد في الموصلي عام ٥٥٥هـ في أسرة معروفة بالعلم.. وهو أحد أعلام المؤرخين المسلمين وقد أشتهر بكتابه "الكامل في التاريخ".

وفي مقدمة "أسد الغابة" يذكر "ابن الأثير" أن سبب تأليفه لكتابه هو أنه كتب "ابن منره" و"أبو نعيم" و"ابن عبد البر القرطبي" و"أبو موسى الأصبهاني" وأراد أن يجمع في كتاب واحد كل ما احتوته كتبهم الأربعة.. أما الكتاب نفسه فلم يصنفه في الموصل بل في بيت المقدس، وأول ترجمة صدر بها "ابن الأثير" كتابه هي ترجمة رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ثم رتب تراجمه هجائياً وبدأها بترجمة الصحابي "أبي اللحم الغفاري" الذي استشهد في غزوة حتين، وترجم للصحابيات من النساء في آخر الكتاب ورتبهن كذلك وفقاً للترتيب الهجائي.. ولم يذكر ابن الأثير في كتابه

من الأعلام إلا من لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع كلامه وشاهد أحواله، ولذلك استبعد من تضيف الصحابة "الأحنف بن قيس" وعاب على من عدوا الأحنف من الصحابة لأنه لم يلق الرسول صلى الله عليه وسلم وهو رغم أنه عاش في حياة النبي إلا أنه لم يلقه ولم يكن له ظهور إلا في خلافة عمر بن الخطاب، وعن ذلك يقول في مقدمة كتابه: "ولا أعلم لم ذكروه –أي الأحنف بن قيس– وغيره ممن هذه حاله– فإن كانوا ذكروهم لأنهم كانوا موجودين على عهد رسول الله مسلمين، فكان ينبغي أن يذكروا ك من أسلم في حياة الرسول ووصل إليهم اسمه.

ويعرف "ابن الأثير" الصحابة بأنهم هم الذين شهدوا رسول الله وسمعوا كلامه وشاهدوا أحواله ونقلوا ذلك إلى من بعدهم من الرجال والنساء، ومنهج "ابن الأثير" في الترجمة للأعلام يعتمد على ذكر سبب إسلامهم ومآثرهم في الإسلام ويتتبع أفعالهم حتى الوفاة.

فمثلا ترجم لبلال بن رباح الحبشي، فذكر إسلامه وحضوره بدر وغزوات الرسول كلها وقال: "إنه كان من السابقين إلى الإسلام، ومن عذب في الله فصبر على العذاب، وكان يؤذن لرسول الله في حياته سفراً وحلا، وهو أول من أذن للرسول في الإسلام.

وأقام في الشام بعد وفاة رسول الله مجاهدا، ولم يؤذن بعد رسول الله لأحد، فلما دخل عمر الشام أذن له مرة واحدة، ولم ير

باكياً أكثر من ذلك اليوم ويذكر اختلاف الرواة في وفاة بلال فقيل إنه مات سنة ١٧هـ، وقيل ١٨هـ وقيل ٢٠هـ وإن اجتمعت الروايات أنه مات بدمشق.

ومما يذكره "ابن الأثير" عن "بلال بن رباح" أن بلالاً قدم من الشام لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى الحسن والحسين فأخذ يقبلهما ويضمهما إلى صدره فلما طلبا منه أن يؤذن في السحر، صعد إلى سطح مسجد رسول الله وأذن فارتجت المدينة حينما سمعت صوته.

والكتاب بحق موسوعة كبرى في تاريخ الإسلام وأعلامه في عصر رسول الله والخلفاء الراشدين ولا يستغني عنه مؤرخ لصدر الإسلام أو دارس التاريخ الإسلامي، وإن كان "عز الدين ابن الأثير" توفي عام ٦٣٠هـ- ٧٦٠م فإن كتابيه "الكامل" و"أسد الغابة" قد ضمنا له الخلود.

وأخيراً فلابن الأثير شقيقات كانا أيضاً من العلماء أصحاب التصانيف والتآليف أولهما شقيقه الأكبر "مجد الدين أبو السعادات المبارك" (٥٤٤هـ- ٦٠٦هـ) وقد كان محدثا كبيرا له شهرته في مجال الحديث النبوي الشريف، ومن أشهر مؤلفاته "جامع الأصول في أحاديث الرسول" و"النهاية في غريب الحديث والأثير" وثانيهما الشقيق الأصغر "ضياء الدين أبو الفتح نصر الله" (٥٥٨هـ-

٦٣٧هـ) وكان أديباً وله مؤلفاته في الأدب والبلاغة ومن أشهرها "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" ولعل أسرة الأثير تشهد على مدى الرقي الفكري الذي شهدته الموصل يومئذ فهاهم أخوة ثلاثة بلغوا مبلغا كبيراً في رواية الحديث والتاريخ والأدب كل في مجاله.

سيرة النبي لابن هشام

بعد أن انتهى المسلمون من جمع القرآن الكريم وكتابة وتوزيع المصاحف على الأمصار في عهد عثمان بن عفان، اتجهوا إلى كتابة وجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وقد عنى بذلك الخليفة "عمر بن عبد العزيز" وبعد ذلك اهتم المسلمون بتتبع أخبار السيرة النبوية والقرآن والفتوحات الإسلامية وخاصة في عصر التدوين وهو النصف الثاني من العصر الأموي.

وكان من أوائل من كتبوا في السيرة النبوية عروة بن الزبير، وابن إسحاق الملقب بشيخ كتاب السيرة وابن هشام صاحب كتاب سيرة النبي الذي يعتبر تهذيبا لكتاب ابن إسحاق.

ورغم ذلك فكتاب "سيرة النبي" لابن هشام من أجَّل كتب التاريخ والسيرة وهو موضع اهتمام المتلقين منذ تأليفه وحتى اليوم ويرجع ذلك إلى سهولة أسلوب ابن هشام وبلاغته إضافة إلى إكماله لما بدأه ابن إسحاق وكان ابن إسحاق يأخذ من التابعين والعلماء كل ما يتصل بالسيرة والمغازي وفي سبيل ذلك تنقل ما بين مكة والمدينة والبصرة ودمشق والقاهرة.

حتى قال عنه الإمام الشافعي: "من أراد أن يتبحر في المغازي

فعليه بابن إسحاق وبعده جاء ابن هشام فعكف على ما كتبه ابن إسحاق فهذبه، وكان هذا التهذيب بتصويبات نفى بها ما شاب سيرة ابن إسحاق من نقص أو خطأ، وزاد على الأصل كما فسر ما ورد فيها من أشعار أو أخبار تستحق التفسير.

ومن الطريف أن تهذيب "ابن هشام" لسيرة "ابن إسحاق" تعرض أيضاً، للتهذيب على يد "السهلبي" و"ابن المرحل" الذي اختصرها وربتها على ثمانية عشر مجلساً وأسماها "الذخيرة في مختصر السيرة".

أما كتاب "سيرة النبي" لابن هشام فهو مقسم إلى أربعة أجزاء أسمى المؤلف كل جزء منها كتاباً وجمع في الكتاب الأول منها كل ما يتصل بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم فتحدث عن النسب النبوي الشريف وما يتصل به من التاريخ العربي عامة وتاريخ الحجاز ومكة والمدينة وخاصة.

وتحدث عن تاريخ أبرهة الحبشي وقصة أصحاب الفيل وظهور سيف بن ذي يزن واستنجاده بكسرى لإخراج الأحباش من اليمن.. وغير ذلك من أخبار وتواريخ تسبق عن مولد النبي صلى الله عليه وسلم، والكتاب الثاني مخصص للحديث مولد النبي صلى الله عليه وسلم وما يتصل به من أخبار مثل حلف الفضول وحفر زمزم ونذر عبد المطلب أن يذبح ابنه وقصة الفداء.

ويلي ذلك الكتاب الثالث ويخصصه للبعثة النبوية، حيث يذكر فيه كل أحداث التاريخ الإسلامي منذ أول نزول الوحي وحتى الهجرة والكتاب الرابع والأخير تابع حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الهجرة وحتى الوفاة ذاكراً الغزوات والسرايا، وتفاصيل حجة الوداع.

و"ابن هشام" بصري المولد، فقد ولد في البصرة لأسرة معافرية ذات أصل حميري ولما أتم علمه بالبصرة ارتحل إلى مصر ليلتقي بالإمام الشافعي لكن ميله للأخبار والسير أبعده عن الفقه وقربه إلى المغازي وعلوم النسب وله في ذلك كتب عديدة غير "سيرة النبي" ولعل أصله الحميري هو ما دفعه للاهتمام بأنساب حمير فألف فيها كتابا هو: "أنساب حمير وملوكها" وقد عبر في كتاب ثالث عن ميله للسير والأدب معاً فألف كتاب "شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب".

وبقي "ابن هشام" بمصر لم يبرحها منذ وطأتها قدماه حتى مات ودفن بالفسطاط في سنة ٢١٨هـ/ ٨١٣م.

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي

ولد تقي الدين أحمد بن علي المقريزي بالقاهرة، وتنتمي أسرته إلى "حارة المقارزة" في بعلبك ومنها اكتسبت العائلة اسم "المقريزي".. وقد توفي والده وهو صغير فكفله جده لأمه وكان حنفياً، فنشأ المقريزي حنفياً حتى مات جده فانقلب إلى الشافعية.. ودرس المقريزي على كبار شيوخ عصره في الفقه والحديث والتاريخ، وأهم من تأثر بهم "ابن خلدون" الذي جالسه كثيراً عندما جاء مصر ليتولى قضاء المالكية بها.

وعمل بوظائف حكومية عديدة وتولى الحسبة أكثر من مرة، ورفض أن يتولى قضاء دمشق في عهد السلطان برقوق، لكن في عهد ابنه تولى نظارة أوقاف القلانسي والبيمارستان النوري بدمشق وعاش هناك عشر سنوات، عاد بعدها إلى القاهرة ليعتزل الوظائف الحكومية ويتفرغ للتأليف، ولزم داره بحارة برجوان يقرأ ويكتب لثماني سنوات، ثم خرج لأداء فريضة الحج مع أسرته عام ٨٣٤هـ وقضى بمكة خمس سنوات، عاد بعدها إلى مصر ليواصل عكوفه على التأليف حتى توفى في أحد أيام شهر رمضان.

ويعتبر المقريزي كبير مؤرخي مصر الإسلامية، وله كتب في مجالات أخرى غير التاريخ فقد عني بمعالجة بعض القضايا

الإسلامية مثلما حدث في كتاب "النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم" وكتب أخرى درس فيها بعض النواحي العلمية مثل "المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية" وكتب عالج فيها النواحي الاجتماعي والاقتصادية مثل "إغاثة الأمة بكشف الغمة" وهو كتاب فريد في بابه إذ يتناول فيه تاريخ المجاعات التي تعرضت لها مصر طوال تاريخها وحتى حياته، كما هذب كتاب التوحيد للماتريدي وقدمه في مجلد عنوانه "تجريد التوحيد".

أما مؤلفاته التاريخية فقد توزعت على اتجاهات ثلاثة فعني بتاريخ العالم في كتاب "الخبر عن البشر" وبتاريخ الإسلام في "الدرر المضيئة" وأكثر ما عني بتاريخ مصر الإسلامية فأرخ لمصر منذ الفتح الإسلامي وحتى الإخشيديين في كتاب "عقد جواهر الألفاظ في أخبار الفسطاط" وأرخ للعهد الفاطمي بكتاب "اتعاظ الحنفا" وللدولة الأيوبية بكتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" وللدولة المملوكية في كتاب "السلوك المعرفة دول الملوك" وله كتب أخرى عن التاريخ البشري أهمها المقفي الكبير" وكان مقدار له أن يخرج في ٨٠ مجلدا لكن مات المقريزي ولم يكتب إلا ستة عشر مجلدا ضاع نصفها وطبع النصف الآخر في تونس منذ سنوات، وله كتاب عن خطط القاهرة أسماه "المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار".

أما كتاب "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا "فلا

توجد منه نسخة كاملة في العالم كله إلا تلك الموجودة في مكتبة سراي أحمد الثالث باستانبول، وفي هذا الكتاب يؤرخ "المقريزي" للدولة الفاطمية كلها، ويبدأ بذكر ثبت كامل لأولاد علي بن أبي طالب من نسل الحسن والحسين، وبعده عرض لمشكلة النسب الفاطمي، ومما يزيد من أهمية هذا الجزء أن المقريزي من المؤرخين السنيين القلائل الذين أيدوا النسب الفاطمي.

ثم أرخ لقيام الدولة الفاطمية في المغرب فتحدث عن جهود الدعاة الأوائل حتى وصل إلى عبيد الله المهدي وأرخ للخلفاء الفاطميين الأربعة الذي حكموا في المغرب، ثم تحدث عن دخول الفاطميين مصر وتأسيس القاهرة وبناء الجامع الأزهر، وأفرد لكل من المعز والعزيز وهما أول الخلفاء الفاطميين في مصر فصلا، وبانتهاء عبد العزيز انتهى الجزء الأول من الكتاب، أما الجزء الثاني فتضمن (٤) فصول تحدث فيها المقريزي عن الحاكم بأمر الله، وابنه الظاهر لإعزاز دين الله، والمستنصر بالله بن الظاهر وينتهي هذا الجزء بفصل عنوانه: "ذكر الفتنة التي آلت إلى خراب مصر" في أواخر الخليفة المستنصر.

أما الجزء الثالث فيتضمن تأريخا لبقية الخلفاء الفاطميين وهم "المستعلي بالله، والآمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله، والظافر بأمر الله، والفائز بنصر الله، والعاضد لدين الله". ثم يؤرخ الكتاب لزوال

الدولة الفاطمية.

وقد حقق الجزء الأول من الكتاب د. جمال الدين الشيال ونشر في القاهرة بمناسبة مرور ألف عام على إنشائها، ثم توفي المحقق فأكمل تلميذه د. محمد حلمي محمد تحقيق الجزأين الثاني والثالث، فأكتمل لأول مرة هذا الكتاب الهام.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
ليوسف ابن تغري بردي

ولد "ابن تغري بردي" بالقاهرة سنة ٨١٢هـ وهو الأمير "يوسف" ابن الأمير تغري بردي الذي كان من مماليك السلطان برقوق، ومات والده عام ٨١٤هـ وكان "يوسف" هو أصغر أخواته وكفله زوج أخته الذي كان حنفي المذهب فحببه في الحنفية لذا لم يدرس العلم إلا على أيدي مشايخ المذهب الحنفي ولم يلتفت للمذهب الشافعي، ولما كبر ترك الفقه إلى التاريخ ولازم المقريزي والصيني وأخذ عنهما، وأوقف مؤلفاته على التاريخ.

ومن أهمها: "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي" وهو يضم تراجم الأعيان في الدولة المملوكية و"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" وله غير ذلك (١٥) مؤلفاً منها كتاب في الموسيقى وآخر في التصوف بالإضافة إلى كتاب في معاني اللغة التركية.

أما كتابنا اليوم "النجوم الزاهرة" فيؤرخ فيه "جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي" لمصر منذ الفتح الإسلامي وحتى سنة ٨٧٢هـ وإن كان يستطرد أحياناً ويسرد أخبار البلاد المجاورة، ويقع الكتاب في (١٥) مجلداً وقد لخصه "ابن تغري بردي" بنفسه وقدمه في مجلد واحد عنوانه "الكواكب الباهرة في النجوم الزاهرة"

ويقال أن صداقة "ابن تغري بردي" للأمير "محمد بن جقمق" هي التي دفعته لتأليف هذا الكتاب وكان ينوي أن ينهيه عند ولاية "محمد بن جقمق" لكنه مات قبل أن يصل إلى هذا التاريخ، ويذكر أن السلطان سليم العثماني لما غزا مصر حكى له عن "ابن تغري بردي" ومؤلفه، فأمر بأن يترجم الكتاب إلى التركية، ونقله "شمس الدين أحمد بن سليمان" قاضي العسكر بالأناضول حينئذ إلى اللغة التركية ومنها ترجم إلى لغات أوروبية عديدة.

وعن منهجه في تأليف الكتاب يقول "ابن تغري بردي": استفتحه بفتح مصر، وعلى أي وجه فتحت، وجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار، ثم ذكر من وليها من يوم فتحت، وما وقع في دولته من العجب، ثم ذكر أيضاً ما أحدث صاحبها أيام ولايته من الأمور، وما جدده من القواعد والولايات في مدى الدهور".. وقد تجلت معرفة "ابن تغري بردي" بالفلك عندما يتناول الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف، أو ظهور المذنبات.

أما كون "ابن تغري بردي" من أصول غير مصرية أو عربية فلم يعقه من تعلم العربية والإلمام بالثقافة السائدة في عصره، وكونه مملوكياً أكسب مؤلفاته بعدا افتقدته غيرها، فقد كان أبوه أميرا، وأخته "فاطمة" كانت زوجة للسلطان الناصر قلاوون، وقد مكنته هذه العلاقة من رصد أدق تفاصيل حياة المماليك وعاداتهم وطبائعهم

وأسلوبهم في الحكم، وإن أدى ذلك إلى افتقار "النجوم الزاهرة" للأخبار اليومية للشعب المصري على عكس ما نجده في مؤلفات المقريزي.

أما أهم ما ينفرد به "ابن تفري بردي" في "النجوم الزاهرة" بين المؤرخين السابقين عليه، وبين مؤرخي عصره أيضاً فهو اهتمامه البالغ بفيضان النيل.. ففي نهاية أحداث كل سنة يقول: "أمر النيل في هذه السنة –الماء القديم كذا ذراع– مبلغ الزيادة كذا ذراع" وقد سجل تقلبات النيل منذ الفتح العربي حتى سنة ٨٧٢هـ التي يختتم بها النجوم الزاهرة، فيرصد في كل سنة أدنى مستوى وصلت إليه المياه أيام التحاريق، وأعلى مستوى زيادة وصلت إليه أثناء الفيضان، فقد كان النيل هو ترمومتر الحياة في مصر وإن انخفض مستوى الماء فيه عن (٤) أذرع تشح الغلال وتحدث المجاعات وفي أثرها تنتشر الأوبئة، وإن زاد وفاض تغرق القرى والجسور.

ويصف "ابن تغري بردي" مقاييس النيل المختلفة، ابتداءا من المقياس الأول الذي أنشأه عمرو بن العاص بأسوان، ثم مقياس الجزيرة الذي أنشأه أسامة بن زيد التنوخي في عهد سليمان بن عبد الملك، ثم المقياس الكبير الذي أمر به الخليفة المتوكل العباسي سنة ٢٤٧هـ.

بدائع الزهور في وقائع الدهور.. لابن إياس

ولد "ابن إياس" بالقاهرة عام ٨٥٢هـ وهو "محمد بن أحمد بن إياس الحنفي"، وهو من أسرة ذات أصول جركسية وفدت إلى مصر عام ٧٧٥هـ، فلقد جاء جده لأمه ازدهر العمري الناصري رفيقاً للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، أما جده لأبيه "إياس الفخري" فقد كان من المماليك الجراكسة الذين جلبهم السلطان برقوق، أما والده "أحمد بن إياس" فكان من الطبقة المملوكية التي تشمل أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة، وهي طبقة على هامش المجتمع المملوكي تسمى "فرقة أولاد الناس"، وقد تزوج "أحمد بن إياس" كثيراً وأنجب (٢٥) ولدا وبنتا مات منهم على حياته (٢٢) ولم يعيش له إلا محمد ويوسف وأخت لهما.

ولا تكاد المصادر التاريخية تذكر شيئاً عن ابن إياس غير ذلك، فلم يكتب عنه أحد من المؤرخين ترجمة تُذكر، ولم يكتب هو عن حياته شيئاً، كل ما ذكر عنه أنه قضي حياته عاكفا على العلم، وخاصة التاريخ ومن أعلام المؤرخين المصريين في عصره "المقريزي والسيوطي وابن تفري بردي وابن الصيرفي" وغيرهم.

وأما شيخه الذي علمه التاريخ فهو "عبد الباسط بن خليل الحنفي" ولابن إياس مؤلفات عديدة في هذا المجال منها: "نزهة

الأمم في العجائب والحكم"، "مروج الزهور في وقائع الدهور"، "عقود الجمان في وقائع الأزمان"، "نسق الأزهار في عجائب الأقطار" وقد أتمه عام ٩٢٢هـ عام دخول العثمانيين مصر إضافة إلى كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" الذي يعد من المصادر الأصلية في تاريخ عصر السلطان سليم الغوري والغزو العثماني لمصر، فقد شاهد بنفسه هذه الأحداث الجسام، وكانت قمة المأساة في هذه الفترة هزيمة مصر في "مرج دابق" أمام العثمانيين، بعد خيانة عسكرية في صفوف الجيش المصري سقط فيها الغوري ميتاً ولم يعثر على جثته ودخل السلطان سليم الأول العثماني القاهرة فيقول "ابن إياس" عن يوم "مرج دابق" وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر، وغلت أيديهم عن القتال، وشخصت منهم الأبصار ويقول: "ومات السلطان من شدة قهره، فلم يعلم له خبر، ولا وقف له على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلى، فكأن الأرض قد ابتلعته في الحال، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

ويتابع "ابن إياس" فيصف حزن القاهرة، ويصل إلى "طومان باي" فيتحدث عن توليه أمور البلاد واستعداداته لصد العثمانيين عن مصر، لكنه هُزم وشنق، ويقول عن ذلك "ابن إياس": "فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف وكان شجاعاً بطلا تصدى لقتال ابن عثمان، وفتك في عسكره، وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات وهو في نفر

قليل من عسكره، ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال".

ويصور "ابن إياس" بسالة المقاومة المصرية الشعبية للغزو العثماني.. ويتحدث عن فظائع سليم وسفكه للدماء ونهبه للأموال وتخريبه للآثار وللمساجد.

واختتم ابن إياس المجلد الخامس بقوله: "يتلوه الجزء الثاني عشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور" وقد أتم الجزء الحادي عشر في يوم الأربعاء سلخ ذي الحجة سنة ٩٢٨هـ، ويفهم من ذلك أن ابن إياس الذي كان في هذه الفترة يدون يوماً بعد يوم الأخبار والوقائع التي يشاهدها قد بدأ في اليوم الذي هو أول المحرم سنة ٩٢٩هـ في كتابة مذكراته وفقاً لما خططه لكتابة غير أن هذا الجزء لم يعثر له على أثر.

وابن إياس مثل غيره من مؤرخي القرن التاسع الهجري صاحب لغة بسيطة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى، ولا يعبأ كثيراً بقواعد النحو والإملاء، لكن ذلك لم يحل دون أن يحتل "بدائع الزهور" مكانته كمصدر هام من مصادر التاريخ المصري.

أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر

هذا الكتاب حققه د. حسين مؤنس عن نص فريد كتبه مؤلف مجهول وعرض فيه قصة سقوط غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس، وفي تحقيقه عمد د. حسين مؤنس –وهو العلم الحجة في التاريخ الإسلامي عامة والأندلس خاصة– إلى إبراز تاريخ دولة بني نصر حتى بداية الحوادث التي يتناولها المؤلف المجهول.

وفي مقدمة التحقيق يذكر د. حسين مؤنس الأسباب التي ودفعته إلى تحقيق الكتاب وإعادة نشره وأهمها أن النص يكشف "أن شعب غرناطة ظل يكافح في سبيل بلاده إلى آخر لحظة، وأن الذين قصروا في حق هذا البلد وأضعفوه وكانوا سببا في سقوطه في يد الأسبان هم ملولة وأمراؤه".

ويبدأ الكتاب بمقدمة للدكتور حسين مؤنس تستغرق ما يقرب من نصف عدد صفحات الكتاب وفيها قدم موجزا لتاريخ غرناطة، فبين أن مملكة غرناطة التي عرف بابن الأحمر، نشأت في ظروف غريبة وغير مواتية، فالجبهة النصرانية قويت بعد اتحاد قشتالة وأراجون، والجبهة الإسلامية خضعت لحكم أولاد أبي يوسف يعقوب المنصور، الذينكنوا كوارث على الأندلس لتنازعهم على السلطان.. فبدأ الممالك الإسلامية في التساقط، فقرطبة استسلمت دون حرب

وسقطت بصورة غير متوضعة بالنسيا ومرسية، وكل شرقي الأندلس، لذا ركز محمد بن يوسف على توسيع مملكته على حساب جنوب الأندلس.

ولما قويت شوكة "ابن الأحمر" خشي "فرناندو الثالث" أن يتهدد ما يرمي إليه من القضاء على الإسلام في الأندلس، فهاجم مملكة "ابن الأحمر" وغزا "جيان" لكن "ابن الأحمر" واجهه في "مرتش" وقبل يومها عددا كبيراً من الإسبان.. لكن في عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) عاد فرناندو لجمع قواته وحشدها لغزو غرناطة وبالفعل استولى على حصن أرجونة وبدأ حصارا كبيراً لم ينته إلا بالاتفاق على أن يدخل ابن الأحمر في ولاء فرناندو الثالث، مع الاحتفاظ بملكيته لغرناطة وتوابعها، ويدفع جزية سنوية مقدارها مائة وخمسون ألف قطعة ذهبية، ورغم المهانة التي يمكن استشعارها من هذا الاتفاق إلا أنه ضمن لغرناطة أن تستمر لقرنين من الزمان بعد سقوط جميع الأندلسي.. لكن من خلفوا "ابن الأحمر" لم يكونوا مثله، فسارت البلاد من سيء إلى أسوأ حتى وصلنا إلى الملك التاسع عشر على غرناطة، وهو الذي يبدأ به كتاب "أخبار العصر ش الملك أبو الحسن علي بن سعد".

وقد بدأ عهده باسترداد حصن قديم كان النصارى قد انتزعوه من غرناطة فتفاءل الناس به خيرا لكنه سرعان ما انقلب فظلم الناس

وأتقل عليهم بالضرائب، ومال إلى حياة اللهو فقد ثقة الشعب، أما أكبر أخطائه فتمكن في زواجه –وهو كهل– من فتاة نصرانية اسمها "إيزابيللال" وأسلمت وتسمت باسم "وأنجبت له ولدين هما سعدا ونصرا، واستطاعت أن تجعله ينقل ولاية العهد منابنه الكبير "أبو عبد الله محمد ش إلى أبناء "سعد" وزاد على ذلك فسجن زوجته الأولى "عائشة" وولديها، وكانت عائشة من أسرة عظيمة مشهورة بالفروسية هي أسرة "بنو سراج".

حينئذ وقعت الفتنة في غرناطة، واستقلها ملوك قشتالة وأراجون فغزوا مدينة الحامة وكانت بداية النهاية مشقطت بعدها "لوشا" ثم "مالقا" وتوالى السقوط حتى سقطت غرناطة في النهاية في ٢ يناير ١٤٩٢م (٢ ربيع أول ٨٩٧هـ).

وبهذا انتهت واحدة من أفظع مآسينا وأشدها ألماً حتى اليوم، وبعد خمسين عاماً من سقوط غرناطة، جلس ذلك المؤلف المجهول ليكتب "أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر" وذلك في عام ٩٤٧هـ.. فهل كان يبكي غرناطة؟ أم أراد تحذيرانا من نفس المصير؟!

مقاتل الفرسان لمحمد بن حبيب البغدادي

تعرف المكتبة العربية ثلاث كتب باسم "مقاتل الفرسان" أولها لأبي عبيدة معمر بن مثني البصري النحوي المتوفى سنة ٢١١هـ وثانيها –الكتاب الذي نحن بصدده– لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي المتوفى سنة ٢٤٥هـ، والثالث لأبي علي إسماعيل بن قاسم القالي المتوفى سنة ٣٥٦هـ، ولمخطوطة كتاب محمد بن حبيب نسخ أخرى تحوي نفس النص لكن باسم آخر هو "كتاب أسماه" المغتاليون من الأشراف في الجاهلية والإسلام" ولابن حبيب كتب أخرى منها "كني الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه " وكتاب "ألعاب الشعراء ومن يعرف منهم بأمه".

وبالنسبة لكتاب "مقاتل الفرسان" أو "أسماء المغتالين" فقد عني فيه مؤلفه أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي بجمع أخبار المغتالين، وكلمة المغتالين تعني الذين اغتيلوا أي الذين لقوا مصرعهم بأيدي غيرهم، وقد جمع محمد بن حبيب في كتابه أخبار (١٣٠) رجلا قتلوا غيلة، سواء كان قتلهم في الجاهلية أو الإسلام وهو لم يلتزم ترتيباً هجائيا للشخصيات المغتالة الواردة في الكتاب ولم يلتزم حتى ترتيبا زمنياً لوقوع حوادث الاغتيال، لكن منهجه في تناول أغلب الشخصيات الواردة في الكتاب اعتمد على تقديم

ترجمة سريعة للشخصية المغتالة مع تفصيل لواقعة الاغتيال.

وقد بدأ الكتاب بجذيمة الأبرش وأوضح إنه جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوسي الأزدي وهو "أول من استجمع له الملك بأرض العراق" وقد اغتالته "الزباء" بأن كتبت إليه تدعوه إلى ملكها ونفسها فرغب جذيمة فيما أطمعته الزباء فيه وذهب إليها مخالفاً نصيحة خلصائه الذين فطنوا إلى أن في الأمر خدعة واتبع هواه فعبر الفرات قاصدا الزباء فلقيه فرسانها على خيولهم واقتادوه، إليها حيث قتلته وجمعت دمه في طست ذهبي وثأرت بذلك لأبيها عمر بن الظرب. ويذكر ابن حبيب أيضاً قصة اغتيال "جساسي بن مرة" قاتل "كليب بن ربيعة".. ومن المعروف أن مقتل كليب أشعل حرب البسوس ولما حدث الصلح بعدما كادت قبليتا "جساسي بن مرة وكليب بن ربيعة" أن تفنيا كفَّر من ذنبه بأن ربى "الهجرس بن كليب" وهو في نفس الوقت ابن أخت جساس وهي جليلة بنت مرة، وأنزله منه منزلة الابن وزوجه من ابنته، ولما كبر الجهرس لم يكن يعلم من أمر أبيه شيئا حتى اشتجر مع رجل من بني وائل (أهل جساسي) فقال له إن لم تنته سنلحقك بأبيك، وعلم الهجرس ببقيه الأمر فطعن خاله جساسي وفر إلى قومه بني ربيعة، وممن يذكر أخبار اغتيالهم ابن جعفر في كتابه "الفاروق عمر بن الخطاب" إذ يذكر واقعة قتل "أبو لؤلؤة المجوسي" له، كما يذكر واقعة اغتيال "علي بن أبي طالب" حيث قتله عبد الرحمن بن ملحم بسيف مسموم ويذكر

الكتاب أن سبب قتل بن ملحم لعلي يرجع لامرأة يقال لها "قطام" وهي من الخوارج وكان يهتم بها ملجم وأراد الزواج منها فقالت: "لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف وقتل علي بن أبي طالب" فقتل علي ليتزوجها.

ويذكر الكتاب مقتل "الحسن بن علي" الذي مات مسموما لكنه لم يذكر مقتل الحسين إذ قتل في الحرب ولم يغتال.. وممن مات مسموما عمر بن عبد العزيز فقد دس له بنو مروان عند خادمه وأعطوه ألف دينار على أن يسمه فلما فعل وأحس عمر بن عبد العزيز بما تم له أحضر الخادم وسأله: ما حملك على فعل ذلك؟ قال: جعل لي عتقي وألف دينار، قال هات الألف، فأخذها فجعلها في بيت المال، وقال: اذهب فأنت حر.. ومات أيضاً "عبد الله بن عمر بن عبد العزيز" مخنوقا في سجنه وتتبع بعد ذلك "محمد بن حبيب" في كتابه مقاتل الشعراء فذكر اغتيال عنترة العبسي، وطرفة بن العبد، ودريد بن الصمة، ووضاح اليمن، وغير ذلك.

الحدائق الغناء في أخبار النساء

"الحدائق الغناء في أخبار النساء" كتاب ألفه "أبو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي" في دمشق في أواخر القرن السادس الهجري ليقدم فيه تراجم لشهيرات النساء في صدر الإسلام.

ولم يتبق من هذا المخطوط إلا نسخة واحدة في مكتبة "تشستر بيتي" بدبلن، وقد اعتمدت محققة هذا الكتاب د. عائد الطيبي الأستاذة بجامعة طرابلس على هذه النسخة الوحيدة.

وقد ولد "أبو الحسن علي بن محمد" في مالقة بالأندلس، وفي عام ٥٧٧هـ (١١٨١م) قصد البيت الحرام للحج وبعد ذلك توجه للشام حيث قصد دمشق وهناك عرف بالعلم والورع فقصده الطلاب لتلقي العلم على يديه.

وفي عام ٥٨١هـ تفرغ لجمع أخبار النساء في صدر الإسلام ليصنف كتابه هذا، وقد فرغ منه قبل أن يسترد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس في ٥٨٣هـ، وقد انضم "أبو الحسن" إلى جيش صلاح الدين وشارك في معارك استرداد بيت المقدس.

وبعد ذلك وحينما رغب صلاح الدين في تعيين خطيب وإمام لبيت المقدس استشار العلماء فأجمعوا على أحقية "أبو الحسن بن محمد المعافري" لهذا المنصب، وظل يشغله حتى مات بالقدس عام ٦٠٥هـ (١٢٠٨م) وكان يلقب هناك بالحاج المالقي.

وعن وفاته يذكر المراكشي في تاريخه: "بقي المعافري معلوم الجلالة إلى أن توفي، فكانت جنازته مشهودة لم يتخلف عنها أحد، حتى أن النصارى الذين كانوا بالكنيسة هناك اتبعوا جنازته ورموا بعض ثيابهم على نعشه" وبقى من مؤلفات "المعافري" كتاب وحيد آخر غير "الحدائق الغناء في أخبار النساء" وهو كتاب "الجامع المستقصي في فضل الجامع الأقصى".

وعن كتاب "الحدائق الغناء" يذكر "المعافري": "لم نبن هذا الكتاب على استيفاء أبواب أنواعه، وإنما جعلناه موشحاً ممتزجا بمنزلة الحدائق المشتملة على أنواع مختلفة، يقع الأنس بمشاهدتها والالتذاذ بجناها والارتفاع بثمرتها".

ويبلغ عدد النساء المذكورات في الكتاب تسعاً وعشرين امرأة: منهن ثلاث عابدات، وثلاث شاعرات، وثمان جوارٍ مغنيات، وخمس عشرة امرأة اكتسبن شهرتهن من ارتباطهن برجال مشهورين. وتقدم الأخبار المجموعة في هذا الكتاب صورة للمرأة العربية في صدر الإسلام تختلف تماماً عن الصورة الشائعة في الغرب.

ففي الكتاب أمثلة كثيرة تشير إلى أن المرأة كانت شديدة الاعتداد بنفسها ففي علاقتها بزوجها لم تكن خانعة ولا مكرهة إذ يذكر الكتاب أمثلة على ذلك منها ما روي عن "عائشة بنت طلحة بن عبيد الله" أنها عتبت على زوجها "مصعب بن الزبير" لانشغاله بجواريه فهجرته وآلمه ذلك لكنها لم تصالحه إلا عقب عودته من إحدى الغزوات منتصراً فقامت لتهنئته وقالت: "لولا التهنئة لطال الإعراض".

ويبدو من الأخبار المذكورة في الكتاب أن المرأة في صدر الإسلام كانت تتمتع بقدر كبير من الحرية، فالحجاب لم يؤد إلى الفصل التام بين الجنسين فأم الدرداء قالت عندما سألها أحد مجالسيسها عما إذا كانوا أملوها أجابت: "لقد طلبت العبادة في كل شيء فما أصبت لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء".

وروي عن "عائشة بنت طلحة" أنها كانت تجلس وتأذن كما الرجال، كما ذكر الكتاب أسماء نساء قمن بزيارة الخلفاء لقضاء بعض المصالح مثل "ليلى الأخيلية" و"أم سنان" وغيرها وترسل لنا هذه التراجم صورة امرأة جريئة صريحة تؤمن إيماناً عميقاً بقيم مجتمعها، والمرأة في صدر الإسلام لم تكن بعيدة أو مفصولة عن عالم الرجال فكانت شديدة الوعي بما يدور حولها لكن التحول الذي أصاب المرأة بعد ذلك وأدى إلى تدني وضعها أدى عدم ظهور

نساء من ذوات الشخصية القوية التي تستحق الذكر لذا اقتصر المؤلف على شخصيات نساء من القرن الأول الهجري بالرغم من أنه كتب هذا المصنف في أواخر القرن السادس.

تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان

يعد كتاب "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" لمحمد بن عمر التونسي أهم مصدر للتعريف بأحوال إقليم "دارفور" في السودان فالمقصود ببلاد العرب والسودان البلاد السودانية التي تسكنها قبائل عربية إلى جانب سكانها الأصليين من السودان، أما مؤلف الكتاب فهو محمد بن عمر بن سليمان التونسي، جدة "سليمان" من تونس كما يوحي اسمه، وخرج من تونس قاصداً الحج، وفي طريق العودة آثر أن يبقى في مصر ليدرس في الأزهر وبعد انتهاء دراسته قادته الأقدار إلى سنار في السودان فعاش هناك ولم يعد إلى تونس أبداً تاركاً هناك زوجة وابناً هو "عمر".

وشاءت الأقدار أن يكبر عمر، ويصطحب خاله الطاعن في السن في رحلته للحج، وأثناء مرورهما بالقاهرة التقيا بسليمان التونسي، وتواعدوا على اللقاء في القاهرة بعد الحج، غير أن خال عمر مرض بعد الحج مات فدفنه عمر وتأخر على أبيه الذي اضطر للعودة إلى سنار، فلم يلتق بابنه.. ولما عاد الابن إلى القاهرة قرر ألا يعود لتونس قبل أن يلتقي بابنه، وانصرف إلى تلقي العلم بالأزهر

ولما طال انتظاره، سافر إلى سنار والتقي بأبيه لكنه لم يفلح في إقناع أبيه بالعودة إلى تونس فعاد إلى القاهرة ليكمل تعليمه بالأزهر، ويتزوج من فتاة مصرية أنجبت له ابنه "محمد" سنة ١٢٠٤هـ (١٧٨٩م)، ولما علم بوفاة أبيه سافر إلى سنار ليلتقي بإخوته غير الأشقاء، و طاب له المقام في سنار حينا، ثم غادرها إلى دارفور، وانقطعت أخباره عن ابنه محمد حتى التقي محمد في القاهرة تاجر سوداني من دارفور عرف منه مستقر أبيه وانضم لقافلة التاجر ليلتقي بأبيه وبدأت رحلته التي سجلها في كتابه: "تشجيذ الأذهان مسيرة بلاد العرب والسودان".

وكان عمره حينئذ ١٤ عاما، ولما وصل إلى دارفور التقى بعمه غير الشقيق أحمد زروق، وعلم منه أن سلطان دارفور يقرب منه عمر التونسي وأنه أقطعه إقطاعا في "أبو الجدول"، واصطحب محمد ليلتقي بأبيه هناك. وقد عاش "محمد بن عمر التونسي" في دارفور سبع سنوات وستة شهور، ثم تركها إلى واداي (إقليم بالسودان في الطريق إلى تونس، وأقام بها ثمانية شهور قبل أن يواصل طريق العودة إلى تونس، وسبب مغادرته للسودان أن عمه "أحمد زروق" –وكان وصياً على إخوة محمد– طمع في تركة أخيه واستولى عليها، ووصل محمد تونس عام ١٢٢٨هـ أي بعد مغادرته للقاهرة بعشر سنوات، لكن لم يطب له المقام في تونس فعاد للقاهرة والتحق بخدمة الجيش المصري في وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة، وهي الفرقة

التي شاركت في حرب المورة سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٧م) وعاد من المورة بعد خمس سنوات ليعمل منقحا للترجمات العربية لكتب الطب.

وعن طريق هذا العمل تعرف على الدكتور "بيرون" الفرنسي، وقد علم منه بأمر رحلته وأقنعه بأن يكتب عنها، فكتب عن كل رحلة كتابا، وقام "بيرون" بترجمة رحلته عن "واداي" إلى الفرنسية ونشرها في باريس عام ١٨٥١م، أما الأصل العربي فمفقود ولعله لدى أحد ورثة بيرون.. كما ترجم "بيرون" كتاب "تشحيذ الأذهان" ونشره بالفرنسية بعنوان "رحلة إلى دارفور".

أما عن منهج المؤلف في كتابه فقد قسمه إلى مقدمة ضمت كل ما سبق وحوله إلى دارفور وتناوله في ثلاثة أبواب، الأول منها تحدث في عن سبب رحلته إلى السودان، والثاني خصصه لتفاصيل الرحلة في الفسطاط إلى دارفور، والثالث قدم فيه مسيرة سلطان دارفور عبد الرحمن الرشيد.

أما المقصد فقد قسمه أيضاً إلى ثلاثة أبواب، وقسم كل منها إلى فصول. فالباب الأول وعنوانه: في صفة دارفور وأهلها، قسم إلى خمسة فصول الأول منها "صفة دارفور" وبين فيه موقع إقليم دارفور من أقاليم السودان، وشمائل أهله من الفور، وخص الملول بأربعة فصول ابتداءاً من الثاني وحتى الخامس، تحدث فيها بالترتيب عما

يلي "عادات ملوك الفور، مناصب ملوك الفور، ملابس ملوك الفور، كيفية مجلس السلطان.

أما الباب الثاني من المقصد فقسمه إلى فصلين تحدث في الأول منهما عن عادات الزواج عند الفور، وفي الثاني عن الخصيان أو الطواشية. وأوضح فهي أن لدى سلطان الفور أكثر من ألف خصي، وأنهم أصحاب كلمة نافذة، ولهم سلطة وسطوة، والباب الثالث من المقصد مقسم أيضاً إلى فصلين تحدث في أولهما عن أمراض السودان وعن مأكولاتها وبدأه بملاحظة مفادها أن العرب من ساكني إقليم دارفور ذوو صحة جيدة وطوال العمر، وكذلك الفور أنفسهم لكن إذا تزوج عربي بفوراوية أو فوراوي بعربية يأتي النسل معتلا لا يعمر طويلاً، ويعدد بعد ذلك الأمراض الشائعة هناك ثم ينطلق للمأكولات ويذكر بعض أنواع الحيوانات كالزراف، والفصل الثاني في معاملة أهل دارفور ويقصد بالمعاملة أنواع المعاملات أو العملات المتداولة فمكان يشتري بالملح، وآخر بالفاشر وهو خواتم من القصدير، وسوق ثالث يباع فيه بربط "غزل من القطن"، أما الخاتمة ولا أدري لمَ لمْ يجعلها بابا رابعا فتحدث فيها عن بنانات دارفور وأنواع السحر فيها.

رحلة ابن بطوطة

"ابن بطوطة" هو أبو عبد الله محمد اللواتي ولد سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م ورحلته هي أعظم رحلات القرون الوسطى، فقد بلغ طولها ٧٥ ألف ميل، زار خلالها ٤٤ بلدا، واستغرقت الرحلة ٢٩ عاما تزوج فيها ٢٣ مرة وأنجب سبعين ولدا وبنتا.

واصل رحلته أنه قصد الحج، فخرج من "طنجة" قاصدا "مكة"، وهو شاب في الواحدة والعشرين، وعاد إليها شيخاً في الخمسين، فقد كان يحمل بين جوانحه قلباً شغوفا بالمعرفة فتنقل من بلد إلى بلد، وهو خال الوفاض.. فكان يرحل مع القوافل ويقيم في الزوايا ويزور أهل العلم وبهذه الطريقة ارتحل من المحيط الأطلسي غرباً حتى بحر الصين شرقا.. ولما عاد إلى فاس سنة ٧٥٠هـ كلفه حاكم المغرب بأن يملي مشاهداته على محمد بن جزي الكلبي؛ ويبدو أنه كاتبا للسلطان، فخرج بذلك إلى العالم كتاب "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف باسم "رحلة ابن بطوطة".

وقد حفظ ان بطوطة في كتابه حقائق ومعارف لو لم يحكها لمحاها الزمن ويعتبر ابن بطوطة صاحب الفضل الأول في

استكشاف بعض المناطق الإفريقية جنوب غرب الصحراء، وأهمها مالي، فقد سبق الأوروبيين إلى هذه الأماكن بأربعة قرون، ويبدو من مطالعة "رحلة ابن بطوطة" أنه كان لماحا جاد الذاكرة وهو يرسم في كتابه صورة حية للعصر الذي عاشه، ولم يكن يهبط بلدا حتى يحيط بظروفها السياسية والاجتماعية، ويعرف العلماء وأهل الحكم بذلك فقد تولى القضاء في أكثر من بلد وتزوج كثيرا ليندمج في المجتمع الذي يزوره لكن حب المعرفة يدفعه للرحلة مرة أخرى فلم يستقر به مقام حتى عاد إلى فاس في شهر شعبان من سنة ٧٥٠هـ.. ومما سجله ابن بطوطة في كتابه ووصفه بأنه أعظم منظر وقعت عليه عيناه هو ما شاهده في القاهرة المملوكية.

وهو يقول عن مصر: "مصر لها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأراضيها مسيرة لمجد السير كريمه.. وتربة مؤنسة لذوي الغربة".

ويقول عن النيل: "ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة، والمدن والقرى منظمة بصفيته ليس في المعمورة مثله". وقد اهتم ابن بطوطة اهتماماً خاصا بالنساء وراح يترصد أخبارهن في كل بلد ينزله.

ومازالت بعض ملاحظاته صحيحة حتى الآن مثل ما ذكره عن نساء الطوارق حيث المرأة عندهم أعظم شأنا من الرجل، وتتخذ لها

أصدقاء من الرجال الأجانب تخلو إليهم والرجال عندهم ينسبون لأخوالهم ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته.. وعن نساء شيراز قال": كان يجتمع منهن الألف أو الألفان في الجامع الكبير بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر".. وفي الهند صور حرق النساء مع أزواجهن حتى يموتون. كما أشاد بعظمة شأن نساء خوارزم وجمال نساء جزر المالديف، وشجاعة نساء تركستان الفارسيات.

ورغم عظمة رحلة ابن بطوطة إلا أن البعض له عليها مآخذ مثل ما احتوته الرحلة من خرافات فهو يروي عن رحلته إلى جزيرة سيلان فيقول: إن البحارة شاهدوا جزيرة صغيرة لم تكن قائمة من قبل وانزعجوا منها لأنها كانت طائراً ضخماً يقال له "الرخ" والقارئ المدفق لا يرى في ذلك عيباً فابن بطوطة يعبر عن ثقافة المناطق التي يزورها، وهو يروي الأساطير التي كانت سائدة آنذاك، ولعله كان ضحية روايات المترجمين الخرافية.

المسالك والممالك لابن حوقل

"ابن حوقل" هو الرحالة "أبو القاسم بن علي" ولد في نصيبين، وعاش مرحلة صباه في بلاد ما بين النهرين قبل أن يبدأ في عام ٣٢٢هـ (٩٣٤م) رحلاته التي أثمرت كتاب "صورة الأرض" والذي عرف فيما بعد باسم "المسالك والممالك"، وصورة الأرض هو الاسم العربي القديم للعلم الذي يسمى الآن علم الجغرافيا، ورغم أن المصادر التاريخية لم تذكر مهنة "ابن حوقل" إلا أنه من المرجح أنه كان تاجراً، وذلك لاهتمامه الزائد بالجوانب الاقتصادية للبلدان التي زارها، وفي الكتاب يذكر صاحبه أنه يهتم بالمسالك والممالك، والمفاوز والمهالك، وذكر الأقاليم والبلدان على مر الدهور والأزمان وطبائع أهلها وخواص البلاد في نفسها، وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلاتها، وذكر الأنهار الكبار واتصالها بشطوط البحار، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة، مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار والنوادر والآثار.

أما مصادره فهي: الرحلات والملاحظة المباشرة إضافة إلى قراءة الكتب التي تناولت بعض الأمور، وهنا نشير أن "فيليب حتي" اتهم ابن حوقل بأنه سطا على كتاب للأصطخري وهو معاصر لابن

حوقل، إذ طلب الأصطخري من ابن حوقل –كما يذكر فيليب حتي– أن يراجع خرائط كتاب وضعه فما كان من ابن حوقل إلا أن أعاد صياغة الكتاب ونسبه إلى نفسه بعدما أسماه المسالك والممالك.

ولا ينهض هذا الاتهام على أساس قوي وأن معاصرة ابن حوقل للأصطخري لا تكفي لتأكيده، فكل صفحة من صفحات كتاب تؤكد شخصية ابن حوقل كما أن المنهج المتبع في الكتاب كله واحد، فهو يذكر ملامح كل إقليم يزوره، ويتحدث عن النشاط الاقتصادي لهذا الإقليم ممثلاً في وصف الأسواق والمنتجات، كما أفاض في الحديث عن "نصيبين" وهي موطنه.

ومن الأسواق الشهيرة التي زارها سوق "الكركي" ويقع في مدينة اسمها "برذعة" وهو يصف السوق قائلاً: "مقدار السوق فرسخ، وقد غلب اسم السوق على اسم اليوم، فالناس يجتمعون في السوق كل يوم أحد ويتناوبونه من كل مكان وأوب وكثير منهم إذا عدوا أيام الأسبوع يقولون الجمعة والسبت والكركي، يريد بالكركي يوم الأحد.. وهكذا غلب اسم السوق على اسم اليوم لدوامه وقولهم يوم الكركي.

ويهتم ابن حوقل اهتماماً كبيراً بتجار المغرب كما يهتم بوصف أسواقهم فهو يصف أسواق مدينة فاس فيقول: "في كل يوم من أيام الصيف يرسل في أسواقها الماء من نهرها، فيغسلها فتبرد الحجارة،

وجميع ما بها من الفواكه والغلات، والمطاعم والمشارب، والمرافق والخانات".

ولا يكتفي "ابن حوقل" في كتابه "المسالك والممالك" بتسجيل أسماء مختلف أنواع منتجات البلدان التي يزورها وأسعار هذه المنتجات بل يبحث في أسباب ذلك فمثلاً جزيرة "ميرفة" الأندلسية رخيصة الماشية لكثرة المراعي بها، كما أن أسعار الأندلس عموماً رخيصة لكثرة الخير والسعة.. وتكتمل الملامح التجارية التي يرسمها ابن حوقل في كتابه بذكره مصادر المنتجات الموجودة في الأسواق فليس كل ما يوجد بسوق بلد ما من إنتاج هذه البلد فمثلا ماء الورد الموجود في أسواق فاس جلبه التجار من بلاد فارس، والغلال تأتي من وهران كما أن التين الموجود بأسواق الأندلس أتى من مدينة بونة المغربية، ومدينة سواكن بالسودان يقطنها تجار كثيرون من فارس، وهكذا يتتبع ابن حوقل جميع مراحل النشاط التجاري والاقتصادي فيمكن اعتبار كتابه ليس مرجعاً في الرحلات فقط بل دليلاً لتجار ذلك العصر في القرن العاشر الميلادي.

مروج الذهب للمسعودي

المؤرخ "أبو الحسن علي بن الحسين بن على المسعودي" شخصية فريدة من بين المؤرخين والرحالة العرب، وكتابه، مروج الذهب ومعادن الجوهر: من أوثق المصادر التاريخية.. وقد بدأ "المسعودي" في تأليف كتابه" مروج الذهب عام **٣٣٢هـ** تم أتمة عام **٣٣٦هـ**، وفي تقديم "المسعودي" لمروج الذهب يذكر أعماله الأخرى، فله في التاريخ "أخبار الزمان" و"الأوسط في التاريخ" وله في الديانات مؤلفات عدة منها "المغالات في أصول الديانات" و"سر الحياة" و"نظم الأدلة في أصول الملة" و"الاستبصار في الإمامة"، و"السياسة المدنية".

أما عن سر اختياره لعنوان "مروج الذهب ومعادن الجوهر" فيقول: "وسمت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ما حواه، وعظم ما اشتمل عليه من طوالع بوادع ما ضمته كتبنا السالفة في معناه".. "ولم نترك نوعاً من العلوم، ولا فنا من الأخبار، ولا طريقة من الآثار، إلا وقد أوردناه في هذا الكتاب مفصلاً، أو ذكرناه مجملاً.. ويؤرخ كتابه "مروج الذهب" لأخبار العالم القديم قبل ظهور الإسلام، كما يسجل حياة الرسول وتاريخ رسالته وظهور الدولة الإسلامية، وفتوحاتها وما تفرع عنها من دول" وكل ذلك في

أربعة أجزاء كل منها مطبوع في مجلد مستقل.

فالجزء الأول مخصص لأخبار العالم القديم والجزء الثاني يبدأ بذكر والصقالية والإفرنج وأنسابهم، وكذلك العرب البائدة والمسقربة ووصف بعض البلدان ومنها مصر واليمن والشام والعراق وبلاد فارس، كما يذكر "المستعربة" مختلف الآراء في حصر سنوات تاريخ العالم من آدم إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) وينتقل بعد ذلك إلى ذكر مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثته وهجرته إلى المدينة وفتح مكة ثم يعرض لتاريخ الخلفاء الراشدين وأحداث الفتنة الكبرى، ويختم الجزء الثاني بما أسماه: "ذكر لمع من كلام علي بن أبي طالب وأخباره وزهده

"أما الجزء الثالث من الكتاب فقد تضمن أخبار الدولة الأموية منذ قيامها وحتى زوالها على أيدي العباسيين، كما تعرض للدولة العباسية وتاريخها في ولاية الخليفة "المأمون" بينما تناول من تلاه من الخلفاء في الجزء الرابع الذي انتهى إلى خلافة "المطيع العباسي" عام ٣٣٦هـ.

و"المسعودي" في كتابه يختص بلدين بالمدح هما: "مصر وبابل" فبابل هي مسقط رأسه ويقول عنها في الجزء الثاني "إنها الإقليم الذي ولدنا به، وإن كانت الأيام أبعدت بيننا وبينه، فإنها ولدت في قلوبنا الحنين إليه، إذ كان وطننا ومسقطنا وهو إقليم بايل

(...) ويعز عليّ ما أصارتني إليه الأقدار من فراق هذا المصر، الذي عن يقعته فصلنا، وفي قاعته تجمعنا، ولكنه الزمن الذي من تسميته التشتت".

وأما مصر فقد قصدها باعتبارها مأوى العلماء فأكرمته وقال عنها: "هي معدن الذهب والجوهر والزمرد والأحوال، ومغارس الغلات، غير أنها تسمن الأبدان، وتسود الأبشار، وتنمو فيها الأعمار".. ورغم أن "المسعودي" قال عن مصر "إنها" بلد مكسب لا بلد مسكن" إلا أنه اتخذها مسكنا له، فأقام بالفسطاط وتنقل بين مدنها وتأثر بحضارتها.. وأخيراً فكتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" من جملة دائرة معارف واسعة في تاريخ العالم القديم قبل الإسلام وبعده، وهو يدل على عقلية المسعودي ومعارفه الواسعة، وإلمامه بطبائع الشعوب، وإطلاعه على ما كان يدور في قصور الملوك في عصره.

فما ذكره عن الخيزران أم الهاري وأنها كلمت ابنها الهادي في خلافته في حاجة لبعض الناس، فرفض وساطتها وقال لها: "لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أومن خدمي في لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، ما هذه المواكب التي تفد إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ ج٣ ص ٥٤٩ وقد تحدث المسعودي عن منهجه في كتابه كل معارفه

التاريخية وغيرها وهو منهج المحقق المتشبث الذي يركن إلى مصادرة من كتب وحوار مع العلماء ومعايشة للأحداث، لذلك سيبقى "مروج الذهب" ذخيرة للأدباء والكتاب والمؤرخين.

كتاب الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي

"أبو حيان التوحيدي" هو علي بن محمد العباسي ويقال أنه سمي بالتوحيدي نسبة إلى نوع من التمر يسمى التوحيدي، ويرجح "ابن حجر" أن يكون هذا الاسم لكونه من "المعتزلة" الذين أسموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد.

ولم يذكر مترجموه على وجه الدقة سنة ميلاده إلا أن د. زكريا إبراهيم يرجح أن تكون سنة ٣١٠هـ أو ٣١١هـ واختلف المؤرخون أيضاً في تحديد سنة وفاته وإن كان أيضاً د. زكريا إبراهيم يرجح أنه مات سنة ٤١٤هـ. والتوحيدي أصله من شيراز أو نيسابور، وقد نزل بغداد صغيراً فنشأ نشأة عراقية، وفي بغداد تكونت شخصيته العلمية والاجتماعية، وفيها تلقي العلوم والفنون، وقد كان أبو حيان التوحيدي غزير الثقافة، كثير القراءة، وقرأ على كل شيوخ بغداد فاتسع إنتاجه الفكري واتسم بطابعين أولهما الموسوعية والشمول وثانيهما التحرر ولم يقف اهتمامه على الفلسفة والأدب، بل امتد إلى علم الكلام والفقه والشريعة والتصوف واللغة والنحو.

وقد ترك لنا "التوحيدي" تراثا ضخما يتمثل في (١٨) مؤلفا التزم في معظمها أسلوباً واحداً وهو أسلوب المحاور والمسامرة،

ومن أهم كتبه "تقريظ الجاحظ"، "البصائر"، "المقابسان"، "الإشارات الإلهية"، وكتابنا اليوم وهو أشهر كتب "التوحيدي": "الإمتاع والمؤانسة" واشترك في تحقيقه كل من "أحمد أمين" و"أحمد الزين" وأخرجاه في ثلاثة أجزاء وقالا عنه: "إنه مجموعة مسامرات في فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة، حاضر المؤلف بها الوزير أبا عن عبد الله العارض في أربعين ليلة. وفي هذه الناحية يتشابه "الإمتاع والمؤانسة" مع "ألف ليلة وليلة"، حيث يتوزع الحديث فيهما على ليالٍ متعاقبة ليلة بعد ليلة، وكانت الليلة الأربعون من ليالي "الإمتاع والمؤانسة" مخصصة للحديث عن شاعري القرن الثالث الهجري العظيمين البحتري وأبي تمام، وأفاض التوحيدي في الحديث عن الخصام بينهما وتباين أفكارهما.

وبعد تمام الليلة الأربعين يلحق التوحيدي بالكتاب رسالتين كتبهما إلى الوزير أبي عبد الله العارض "يشكو فيهما حاله لكن بأسلوب متعاظم، ورسالة ثالثة ختم بها الكتاب إلى "أبي الوفاء" وهو من كبار مهندسي الدولة البويهية وكان صديقاً للوزير "العارض"، وحكي فيها حكايته مع الوزير ويبدو أن خصاما قد وقع بين الوزير والتوحيدي أوقف ليالي المسامرة عند الأربعين ليلة.

إن كتاب "الإمتاع المؤانسة" يعتبر وثيقة أدبية وفكرية تثبت ما شهدته الدولة الإسلامية من رفعة وازدهار في القرن الرابع الهجري..

ففي كل ليلة من الليالي الأربعين التي كونت "الإمتاع والمؤانسة" كان يدور الحوار حول موضوع محدد يحدده الوزير "العارض" أو عبد الله الحسين بن أمجد بن سعدان، وإن كان عقل التوحيدي المحيط بشتى جوانب المعرفة كثيراً ما يسلك سبيل الاستطراد فينتقل من فكرة إلى فكرة، ومن طرفة إلى طرفة.

فقد كان "أبو حيان التوحيدي" هو الجاحظ الثاني الذي خلف للعربية زادا رفيقاً من الثقافة مازلنا ننهل منه حتى اليوم، ولعلنا نكون عند حسن ظن التوحيدي، ففي رسالة له إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد (كتبها في رمضان ٤٠٠هـ) قال إنه "جمع أكثر كتبه للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم ولكنه حرم ذلك كله".

وقد ظن التوحيدي أنه حرم ما أراد لكثرة التهجم عليه ولرميه بالزندقة والكفر ممن لم يفهموا كلامه أو ممن ضاقت صدورهم بالغيرة منه، لكنهم نالوا منه فاضطر لأن يستتر حتى لا يُقتل، وظل مستتراً عشرين عاماً أحرق فيها كتبه لقلة جدواها وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته.

الحيوان للجاحظ

"الجاحظ" هو أبو عثمان بن بحر بن محجوب البصري، وكُني بالجاحظ لجحوظ عينيه، ولد الجاحظ عام ١٦٠هـ/ ٧٧٧م، وعاش حياة طويلة امتدت حتى ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م.. وكانت حياته حافلة بالعلوم والمعارف، وترك كتبا عديدة يصعب حصرها وإن كان أشهرها وأهمها "البخلاء"، و"البيان والتبيين" ثم "الحيوان" الذي نعرض له اليوم. وقد حقق الكتب الثلاث المحقق الراحل "عبد السلام هارون" الذي قدم للعربية خدمات جليلة تمثلت في تحقيقه للعشرات من أمهات الكتب العربية، كما قدم "تهذيب الحيوان" في نحو ثلاثمائة صفحة، وقد اختار في تهذيب الكتاب ما كان من النصوص غير مألوف للقراء وحذف الكثير من المسائل الفلسفية والكلامية والنصوص الحوشية الغريبة.. أما الكتاب الأصلي وهو "الحيوان" فهو أول كتاب عربي جامع في هذا العلم، وقد اعتمد فيه على "كتاب" الحيوان "لأرسطو وقد وافق "الجاحظ" على بعض آراء "أرسطو" وخالفه في بعضها، وانتقده في جزء ثالث وزاد الجاحظ على كتاب "أرسطو" فيما اعتمد عليه من آراء معاصريه وبخاصة أقطاب "المعتزلة".

ويقع كتاب "الحيوان" للجاحظ في سبعة أجزاء تقع فيما يزيد

على ألف ومائتي صفحة: وقدم "الجاحظ" للجزء الأول منها بما أسماه "خبطة" الكتاب، وأورد فيها معظم مؤلفاته التي كتبها قبل "الحيوان" وتدل على تعدد اهتمامات الجاحظ فمن الأدب إلى الفقه، ومن الكيمياء والرياضيات والتفسير.. وبعد "الخطبة" يقسم الجاحظ العالم إلى ثلاثة أقسام: متفق ومختلف، ومتضاد وتحدث بإجمال عن الحيوان قبل أن يبدأ الباب الأول وهو "باب ما يعتري الإنسان بعد الخصاء" ثم يعرج على خصاء البهائم ويصف أنواعه، ثم ينتقل إلى الباب الثاني عن الكلاب معددا أصنافها وما ورد في ذمها ثم يورد محاسنها ومنافعها وينهي الجزء الأول بحديث عن الديكة.

ويبدأ "الجاحظ" الجزء الثاني بالعودة إلى الكلاب والديوك فيقارن بينهما، ويستكمل الجزء الثاني بالحديث عن "الفروج" وبيض الطيور وعدده وصفته.

أما الباب الثالث فقد خلط فيه الجاحظ بين الجد والهزل فهو يقص بعض الطرائف ثم يفرد بابا للفراسة، وآخر عن الفطن وفهم الرطانات وثالثا عن الجمال قبل أن يسهب في الحديث عن الحمام فيقول: "إنه كل طائر يعرف بالأواج، ويحسن الصوت والهديل والترجيع، وإن خالف بعضه بعضاً في الصوت واللون، وتحدث عن بناء العش ورعاية الأبوين للصغار، كما تحدث عن الهجن بين

الحمام، وخصص بقية الجزء للحديث عن أشياء كثيرة هي "الذبان، والغربان، والخنافس، والهدهد، والخفاش".

وبدأ الجزء الرابع بباب عن "الذرة" وهي مفرد "الذر" الذي هو صغار النمل وتحدث عن ادخار النمل للشتاء، وقلقها للحب وحملها أضعاف أوزانها، ثم يعرج على القرد والخنزير وما يؤكل من الحيات والأفاعي وذكر أن العقارب تؤكل مشوية ونيئة وإنها كالسمان في الطعم وقد جربها بنفسه.

واختتم الباب الرابع بباب عن الثيران وعاد للثيران في بداية الجزء الخامس فتحدث عن ثيران العرب، والعجم، وثيران الديانة ومبلغ أقدارها، وتلا ذلك بابا عن "الماء" وعرف الماء بأنه "الذي لا ينعقد من دون الأشياء الرقيقة، وهو لا يغزو. وإنما هو معبر موصل للغذاء، وهوا لجوهر القابل لجميع القوى".. ومن الماء عاد للطيور فتحدث عن العصافير والخطاطيف (الخطاف هو طائر عصفور الجنة) والزرازير وعاد مرة ثانية للخفافيش، أما الباب السادس فهو خليط عجيب من أنواع الحيوان وأشياء أخرى منها لعب الأعراب والجن، كما ضمن هذا الجزء العديد من النوادر والأشعار، وأحاديث عن أعاجيب المماليك.

أما الجزء السابع والأخير فهو أقصر أجزاء الكتاب وقصره على ضرب الأمثال بالوحش والطير وما يستدل به في شأن الحيوان على

حسن صنع الله وأحكامه وتدابيره.

ثم تحدث عن الفيل وبان في حديثه مدى إعجابه الشخصي بهذا الحيوان، ويتحدث في باب مستقل عن الزرافة وناقش بعض الآراء التي تؤكد أن الزرافة نتاج زواج بين ناقة ونمر وأبدى حيرته لهذه الآراء وختم الكتاب بباب عن "فرس الماء" ونقل أخبار الناس عنه ومنها أنه "يؤذن بطلوع النيل بأثر وطء حافره، فحيث وجد أهل مصر أثر تلك الأرجل عرفوا أن النيل ينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان".. وأخيراً فإن كتاب الحيوان بالرغم من كونه كتابا علمياً إلا أن قيمته الأدبية الكبيرة وذلك لما ضمنه الجاحظ كتابه من أشعار وأخبار، ولأسلوبه الجزل البديع.

الكامل لأبي العباس المبرد

"الكامل" كتاب لأبي العباسي محمد بن يزيد المبرد وهو شيخ مدرسة البصرة اللغوية والنحوية في عصره. ولد المبرد سنة ٢١٠هـ في البصرة وتوفي ببغداد عام ٢٨٥هـ، والمبرد لقب طلق على أبي العباس محمد بن يزيد لحرصه على إثبات الحق والدفاع عنه، فالمبرد معناها "المثبت للحق"، ولم يكن عالماً فقط في اللغة والنحو بل امتد علمه ليشمل الأدب وتفسير القرآن.

والكامل هو أشهر كتب المبرد ويقع في نحو ألفي صفحة تحوي قدراً كبيراً من النصوص الأدبية والأشعار والأمثال ونوادر العرب وأخبارهم، واهتم المبرد في كتابه اهتماماً خاصاً بالخوارج فذكر أخبارهم وأدبهم لذا يعتبر الكامل من أهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة الخوارج.

ويرجع البعض اهتمام المبرد الزائد بالخوارج إلى رغبته في تمجيد قبيلته "الأزر" ولو عن طريق غير مباشر فقبيلة الأزر هي التي هزمت الخوارج شر هزيمة على يد "الملهب أبي صفرة الأزري" وأبنائه، أما الغرض الذي هدف إلى تحقيقه المبرد من تأليفه الكتاب حيث يقول: هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار ورسالة بليغة.

والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً واهتم "المبرد" في الكامل بجمع وشرح العديد من الأحاديث الشريفة المروية عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وربما لذلك يعتبره البعض من كتب الحديث، وإن كان يتميز عنها في أنه سجل أيضاً الكلام المرسل للرسول صلى الله عليه وسلم وليس فقط الأحاديث النبوية الشريفة، ومن أمثلة ذلك قوله للأنصار واصفاً إياهم: "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع".

ويوضح المبرد أن الفزع هنا ليس بمعنى الخوف والزعر، وإنما بمعنى الاستنجاد والاستصراح أي أن الأنصار يهبون لنجدة من يستنجد بهم ولا يطمعون فيه فهم بذلك أصحاب شهامة ومروءة.

وكما أشار المبرد في مقدمته فقد اهتم بأمثال العرب وأورد طائفة كبيرة منها تكشف عن حكمتهم مثل قولهم: "رب عجلة تهب ريثا" ويؤوله بأن الرجل قد يدفعه استعجال الأمور إلى عدم احتكام أمره وإتقان عمله لعجلته في تنفيذ الأمر، ويدفعه ذلك إلى إعادة تنفيذه، وفي هذه المرة يتريث ويدع العجلة، فالريث هنا بمعنى الإبطاء واهتم المبرد أيضاً بالخطب والرسائل وخاصة خطب ورسائل الفاروق عمر بن الخطاب.

ومن الرسائل التي حفظها "الكامل" من الاندثار إذ لم يرد نصها كاملاً في كتاب عربي آخر رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري، وهي تعد ركيزة من أهم الركائز في التشريع والقضاء الإسلامي.

ومن نصائح عمر بن الخطاب للأشعري في رسالته هذه قوله: "آس بين الناس بوجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

وفي تفسير "المبرد" لهذه الرسالة يوضح أن كلمة "آس" وهي فعل الأمر الذي تصدر الرسالة لم ترد بمعنى سو بين الناس وإنما بمعنى أن اجعل من بعضهم أسوة لبعض في إتباع الحق والرجوع عن الباطل.

فإن المبرد لم يمل عن الحق حينما أطلق على كتابه اسم "الكامل" فهو بحق سفر كامل في الأدب والدين والتاريخ وهو معين عذب من تراثنا العريق الذي لا تبلي جدته عبر الأزمان.

كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري

أبو هلال العسكري هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد وسمي العسكري نسبة إلى مدينة من الأهواز تسمى العسكري مكرم.. ولدبها وتلقي فيها العلم.. ولم يذكر المؤرخون ما يؤكد تاريخ مولده، أو تاريخ وفاته ويجتهد "ياقوت الحموي" في "معجم الأدباء" للبحث عن هذين التاريخين وتحديدهما فيقول: "وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه: وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥هـ وقد أنشد لنفسه قبل وفاته:

لي خمس وثمانون سنة

فإذا قدرتها كانت سنة

إن عمر المرء ما قد سره

ليس عمر المرء مر الأزمنة

وبذلك يمكن تحديد سنة مولده بأنها سنة ٣١٠هـ ونظراً لأن كتاب "الأوائل"هو آخر كتبه فيمكن اعتبار وفاته في نفس عام انتهائه من الكتاب أو العام الذي يليه، وبذلك يكون قد توفى سنة ٣٩٥هـ إلى ٣٩٦هـ وقد ترك "أبو هلال العسكري" قرابة العشرين كتاباً فقد بعضها، ولم يحقق أو يطبع البعض الآخر وله اثني عشر

كتابا محققا منها ديوان شعر، وأهم الكتب الأخرى "جمهرة الأمثال" و"المحاسن في تفسير القرآن" في خمسة مجلدات و"الصناعتين" وهو كتابنا اليوم.. و"الصناعتات" المقصود هنا هما "الشعر والنثر" وهو من خيرة الكتب العربية في البلاغة والأدب. وفي مقدمته للكتاب يتحدث "أبو هلال العسكري" عن مصادرة في كتابه "الصناعتين" في مقدمتها البيان والتبيين" للجاحظ، والحيوان للجاحظ أيضاً، و"البديع" لابن المعتز" و"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر، و"الشعر والشعراء" لابن عتيبة وكتب أخرى كثيرة.

وعن منهجه في تأليف الكتاب يقول: "لما رأيت تخليط الأعلام فيما راموه من الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، مكانه من الشرف والنبل، وجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة (....) رأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه".. والبلاغة عند أبي هلال هي إبلاغ المعنى إلى فهم القارئ، ويرى "أبو هلال" أن للبلاغة غاية دينية وهي التعرف إلى مواضع الإعجاز في القرآن الكريم فإذا كان إعجاز القرآن يقوم على الافتتاح بالحجة والبرهان فعلم البلاغة هو الذي يقدم هذا البرهان.

ويفرق بين البلاغة والفصاحة فيقول "سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، بينما الفصاحة تعني الإبانة أو

تمام آلة البيان" أي أن البلاغة مقصورة على المعنى بينما الفصاحة مقصورة على اللفظ.. وفي الصناعتين" يشتد أبو هلال في القسوة على المتنبي فيقول: "ولا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث، إلا المتنبي، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام، ما عدم منها شيئاً"، وبعد..

فكتاب "الصناعتين" يدل على عقلية مؤلفه وثقافته الأدبية الواسعة وعلمه الغزير، وهو كتاب تطبيقي على قواعد البيان، يمتاز بكثرة شواهد مع الحرص على جودة الاختبار، وقد حار الكثيرون في تصنيف هذا الكتاب وهل هو كتاب أدب ونقد أم أنه كتاب بلاغة وبيان؟

والحقيقة هي الاثنين معاً، إذ حوي خلاصة معارف الأدباء والشعراء حتى أواسط القرن الرابع الهجري، إذ كانوا يكتبون في الأدب والبيان معاً كما فعل "الصولي" في "أخبار أبي تمام، "ثم مزجوا الاثنين بالنقد كما فعل الجرجاني في الوساطة والأمدي في "الموازنة" وقبل كل هؤلاء الجاحظ في "البيان، والتبيين".. وكل هذه الكتب من مصادر كتاب "الصناعتين" وهو في أوفى الكتب في البلاغة ومن أكملها في البيان.

لسان العرب لابن منظور

ابن منظور هو "أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري المصري" ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل "رويفع بن ثابت".. ولد ابن منظور بالقاهرة ٦٣٠هـ وتوفى بها سنة ٧١١هـ وقد عرف بالاشتغال بالأدب وبمعرفته الواسعة باللغة والنحو والتاريخ، وتولى كتابة الإنشاء بالدولة، كما اشتهر باختصار الكتب، لكن لم يعد يقترن باسمه إلا "لسان العرب" وهو أشهر معجم عربي مع أن "العين" للخليل ابن أحمد الفراهيدي هو أول معجم، وتاج العروس من جواهر القاموس" للمرتضى الزبيري هو أكثر المعاجم العربية شمولاً وأغزرها مادة.

وقد وضع "ابن منظور" معجمه بعدما استقر التأليف المعجمي واتضحت طرقه ومناهجه وقد انتقى ابن منظور خمسة معاجم سابقة عليه اعتمد عليها في وضع "لسان العرب" وهي تهذيب اللغة "للأزهري"، و"المحكم" لابن سيدة، و"الصحاح" للجوهري، و"التنبيه والإيضاح كما وقع من الصحاح" لابن بري المصري، والنهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير.

وهذه الكتب الخمسة، كما يرى د. محمود الطناحي تمثل ثلاث مدارس في التأليف المعجمي: الأولى هي مدرسة ترتيب المواد

اللغوية وفق مخارج الحروف وهي مدرسة الخليل ابن أحمد الفراهيدي، ويمثلها في هذه الكتب الخمسة التهذيب والمحكم، والمدرسة الثانية مدرسة ترتيب المواد اللغوية على الجذور واعتبار الحرف الأول منها فصلا والحرف الأخير بابا مع مراعاة الترتيب الألفبائي فيما بين حرفي الفصل والباب، ويمثل هذه المدرسة "الصماح" و"التنبيه والإيضاح"، والمدرسة الثالثة وهي ترتب المواد وفق الأول والثاني والثالث ويمثلها "النهاية"، وقد اختار "ابن منظور" منهج المدرسة الثانية ورتب كتابه على أساسها، وقد أوضح ذلك "ابن منظور" في مقدمة "لسان العرب" وبين أهداف تأليفه للكتاب وهي: "غاية تعليمية تمثلت في نقده لطريقة ترتيب المواد وفق مخارج الحروف وغاية دينية حيث يقول "لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة النبوية وضبط فضلها" وغاية قومية باعثها الغيرة على اللغة العربية بعدما هجرها الناس إلى اللغة التركية (وقت تأليف الكتاب).

وقد ضم "لسان العرب" قدراً كبيراً من المواد اللغوية ممزوجة مع معارف أخرى استمدها من مراجعة فقد أخذ من تهذيب الأزهري قدراً كبيراً من المترادفات والمشترك اللفظي وشواهد القرآن الكريم والحديث الشريف إضافة إلى أمثال وأشعار العرب، وأخذ عن "الجوهري وابن سيدة، ما ضمناه معجميهما من قضايا الاشتقاق والنحو والصرف وأخذ من "ابن بري" عنايته بنسبة الأشعار لأصحابها ومن "ابن الأثير" شرحه لغريب الأحاديث الشريفة وكلام الصحابة

والتابعين. وبذلك أصبح لسان العرب كتاب العربية كما أنه سلم من جفاف المعاجم التي تقف عند حدود شرح اللفظ المفرد أو التركيب معزولاً عن سياقه.

وإذا عدنا لابن منظور فإضافة إلى ما سبق ذكره عنه فقد أشتهر بالتواضع والزهد وهما من صفات العلماء، وقد تجلي تواضعه فيما ذكره في مقدمته لكتابه "لسان العرب" حيث قال: "وليس ليس في هذا الكتاب فضل سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب".. -يقصد الكتب الخمسة المذكورة فيما سبق- من العلوم. (...) فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول، وحمده وزمه لأصله الذي عليه المعول، لأنني نقلت من كل أصله مضمون، ولم أبدل منه شيئاً".

وكما يقول د. محمود الطناحي فإن هذا الكلام قد أغرى البعض بالادعاء بأن ابن منظور لم يقم سوى بالجمع والترتيب في حين أنه ذكر ما سبق من باب التواضع فابن منظور لم يقف عند هذه الكتب وحدها، فقد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته، وحكى عن معاصريه من العلماء ونقل نقدهم لما بين يديه من مواد، وهذا كله لم تتضمنه الكتب الخمسة التي كانت مراجعه الأساسية في "لسان العرب" وقد اشتهر أيضاً ابن منظور باسم "الأفريقي" وسبب هذا اللقب هو أن جده لأبيه كان تونسي الأصل، وفي ذلك الزمان

كانت أفريقيا يراد بها تونس.

وقد غادر جده تونس إلى القاهرة وفيها تزوج وأنجب ابنه وهو والد "محمد جمال الدين" الذي هو ابن منظور، وقد ذكر ابن منظور هذا النسب في مادة (جرب) من "لسان العرب".

وقد بقي كتاب "لسان العرب" مخطوطا حتى قامت "مطبعة بولاق الكبرى" بطبع أجزائه ما بين سنتي ١٣٠٠هـ و١٣٠٧هـ، وقد جاءت هذه الطبعة في عشرين مجلدا من القطع الكبير متوسط كل مجلد ٤٥٠ صفحة وعن هذه الطبعة نقلت الطبقات المتتالية حتى اليوم.

الرسالة النيروزية لابن سينا

"النيروز" كلمة فارسية معربة أصلها "نوروز" وهي مركبة من مقطعين الأول "نو" بمعنى الجديد، والثاني "روز" بمعنى اليوم، فالنوروز أو النيروز هو اليوم الجديد.. و"الرسالة النيروزية" هي رسالة للشيخ الرئيس "ابن سينا" (٣٧٠هـ- ٤٢٨هـ) يبحث فيها عن المعاني الكامنة في فواتح عدد من سور القرآن الكريم وهي الفواتح المركبة من حروف هجائية مثل "ألم" و"ألر" و"حم".

وقد ألف "ابن سينا" هذه الرسالة ليهديها إلى الأمير "أبي بكر محمد بن عبد الله" في يوم النيروز لذا أسماها بـ "الرسالة النيروزية" ويذكر بن أبي أصيبعة في "طبقات الأطباء" أن الشيخ الرئيس أهدى إلى الأمير رسالة أخرى بمناسبة عيد الأضحى هي "الرسالة الأضحوية". أما صاحب الرسالة فهو الشيخ الرئيس "أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا".. ولد ببخاري عام ٣٧٠هـ وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، ثم قرأ كتب الحكمة والمنطق والطب وتصدى لتدريسها وهو ابن ست عشرة سنة، وقد ألف ما يزيد على المائة كتاب في كافة نواحي المعرفة أشهرها كتاب "القانون" في الطب، وقد طبعته جامعة روما سنة ١٥٩٣ ودرس لطلبة الطب فيها

ومنها انتقل إلى كليات طب أخرى في أوروبا، وظل يدرس هناك لقرون عدة.

ومن عجائب القدر أن الشيخ الرئيس الذي كان حجة في الطب فشل في تطبيب نفسه فمات بهمذان سنة ٤٢٨هـ.. وقد قسم ابن سينا رسالته إلى ثلاثة فصول، في الأول تناول ترتيب الموجودات والدلالة على خاصية كل مرتبة من مراتبها وفي الثاني تحدث عن دلالة الحروف وقصر الثالث للحديث عن الغرض.. في الفصل الأول قسم "ابن سينا" الموجودات فبين أن العالم العقلي هو الأول ثم العالم النفسي وهو مشتمل على جمل كثيرة من ذوات معقولة، وموادها مواد ثابتة سماوية، فلذلك هي أفضل الصور المادية والعالم النفسي هو "عالم المثال الكلي المرتسم في ذات مبدئه.

ثم عالم الطبيعة وهو يشتمل على القوى السارية في الأجسام وبعده العالم الجسماني وهو ينقسم إلى أثيري وعنصري، ويفرق "ابن سينا" بينهما فيقول: "خاصية الأثيري استدارة الشكل والحركة، واستغراق الصورة للمادة، وخلو الجوهر عن المادة المضادة، وخاصية العنصري التهيؤ للأشكال المختلفة والأحوال المغايرة، ثم يعيد قسمة الموجودات قسمة أخرى فيقول: وإذا كانت الموجودات بالقسمة الكلية إما روحانية وإما جسمية، فالنسبة الكلية إلى المبدأ".

وفي الفصل الثاني يتحدث عن دلالة الحروف على الموجودات

فمثلاً: الألف يدل على الباري جل وعلا وبالباء على العقل، وبالجيم على النفس، وبالدال على الطبيعة، ويعيد تكرار الدلالات مرتباً الموجودات حسبما جاء في الفصل الأول والحروف وفقاً للترتيب القديم وهو ترتيب "أبجد هوز" وبذلك تكون دلالات الحروف كالآتي:

أ= الباري، ب– العقل، ج= النفس، د= الطبيعة (بما هي ذوات) و= تكون، هـ= الباري، و= العقل، ز= النفس، ح= الطبيعة (بما هي مضافة).

وبعدما يقرر "ابن سينا" ذلك ينتقل إلى الفصل الثالث فيقول: "إن المدلول عليه بـ "ألم" هو القسم بالأول ذي الأمر والخلق، (.....) والمدلول عليه بـ "صلى الله عليه وسلم"القسم بالعناية الكلية وبـ (ق) القسم بالإبداع المشتمل على الكل، وبـ (ن) قسم بعالم التكوين وعالم الأمر، وبـ (يس) قسم بأول الفيض وهو الإبداع وآخره وهو التكوين، و(حم) قسم بالعالم الطبيعي الواقع في الخلق".

وبعد.. فهذا اجتهاد من ابن سينا لكشف سر وصفه هو نفسه بأنه "من أغمض أسرار الحكمة والملة، وهو الإنباء عن الغرض المضمن في الحروف خاصة فواتح عدة من السور الفرقانية".

وقد بنى ابن سينا طريقته هذه على مبادئ رياضية منطقية، وساقها في أسلوب فلسفي، لكن هل استطاع حقاً أن يكشف

الأسرار؟

فهل تصلح طريقته هذه لتفسير أغراض الحروف عامة؟ لا أعتقد ذلك ويمكن نقضها بسهولة لو استعضنا بالترتيب الألفبائي العربي بدلاً من الترتيب الأبجدي الذي اعتمد عليه فبذلك يكون الترتيب أ، ب، ت، ث، بدلا من أ، ب، ج، د.. وهذا يغير تماماً من الدلالات والأغراض التي اعتمد عليها في الفصلين الثاني والثالث من رسالته.

"الباهر في الجبر" للسموأل

للعرب سبق في الجبر والرياضيات لا ينكره إلا جاحد ولا يقلل منه قلة المحقق والمطبوع من كتب العرب في هذا المجال.. ومن أهم الكتب المحققة في الجبر كتاب "الباهر" للسموأل المغربي، وقد صدرت طبعته المحققة في سوريا منذ عشرين عاماً، إذ عكف الدكتوران صلاح حامد ورشدي راشد على تحقيق مخطوطة الكتاب الموجودة بمكتبة "آيا صوفيا"، والمصورة بمعهد الوثائق والمخطوطات التابع لجامعة الدول العربية.

والسموأل -صاحب الكتاب- هو يحيى بن عباس المغربي ولد بالمغرب وطاف بأنحاء العالم الإسلامي وإن عاش أغلب عمره بين بغداد وفارس، ومات في المراغة بأذربيجان عام ٥٧٠هـ (١١٧٥م) وقد كان يهودياً وأسلم، ويشهد له معاصروه بحس إسلامه، وقد ألف كتاباً عن اليهود أسماه "إفحام اليهود" يظهر فيه معايبهم ويكذب ادعاءاتهم ويثبت تزويرهم للتوراة.

وللسموأل تراث كبير يبلغ ٨٥ كتاباً أغلبها في الرياضيات وخاصة علم الجبر، وعن كتاب "الباهر في الجبر" يقول صاحبه السموأل المغربي: "إنه جمع فيه أصول صناعة الجبر والمقابلة وبرهن على ما لم يبرهن عليه أحد قبله"، وعن منهجه في تأليف كتابه

يقول: "لم نخلط كلامنا بكلام من تقدمنا، وإن كنا نسبنا إلى أقدم من نُقل عنه ذلك، وقسمناه إلى أربع مقالات تنفرد كل واحدة منها بمعنى، فمهدنا في المقالة الأولى الطريق إلى التصرف في المجهولات لجميع الأدوات الحسابية كما يتصرف الحاسب في المعلومات، والتزمنا البراهين على جميع قضاياه، وضمنا المقالة الثانية من الأصول التي تنحل بها المسائل الجبرية ويستعان بها على إخراج المجهولات، واستقصينا في المقالة الثالثة الكلام على حسب المقادير الصم، والتصرف فيها بأبواب الحساب حتى جعلنا المنطق والأصم عند متفهمها سيان، ثم ختمنا الكتاب بمقالة رابعة في تقاسيم المسائل، لنقف منها على نوعية كل مسألة ترد، وما تصلح أن تسمى به".

وبالاطلاع على الكتاب نجد أن السموأل قد التزم بالمنهج الذي بينه في المقدمة فأوضح في المقالة الأولى الضرب والقسمة واستخراج الجذور، فقد تحدث عن ضرب العدد المفرد وضرب العدد المركب، كما تناول القسمة سواء بالنسبة للمقادير المفردة أو المقادير المركبة، وكيفية استخراج جذور الأعداد معلومة الصورة المفردة والمركبة، أما المقالة الثانية فقد قسمها إلى خمسة أبواب الأول للتحليل والثاني لما أسماه "المسائل الست الجبرية" والثالث للاستقراء والرابع في براهين هندسية يستعان بها على استخراج المجهولات العددية والخامس فيما أسماء "الخطأين".

والمقالة الثالثة تناولت المقادير الصُم وهي المقادير التي لا جذور لها، والمقالة الرابعة والأخيرة قسم فيها السموأل المسائل الجبرية إلى ثلاثة أبواب تناول في كل منها نوعاً من أنواع المسائل وهي المسائل الواجبة والمسائل الممكنة والمسائل الممتنعة.

وللسموأل غير الباهر كتاب آخر من الجبر هو "الزاهر في الجبر" إضافة إلى رسالته إلى ابن الخشاب النحوي بعنوان "رسالة من الجبر والمقابلة".. ويذكر السموأل أنه لم يختر عنوان كتابه "الباهر في الجبر" بل ترك الاختيار لأحد أساتذته وهو "الإمام ناصر الدين إبراهيم الباكوهي" واختار الإمام اسم "الباهر" لأن الكتاب بهره لإلمامه بعلم الجبر مع أن مؤلفه لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره يومئذ.

وبعد فإن السموأل لم يبلغ في الجبر ما بلغه محمد بن موسى الخوارزمي لكن ذلك لا ينفي أصالة جهوده التي أسهمت في تأكيد الريادة العربية في علوم الرياضيات.

تهذيب الأخلاق لابن مسكويه

يعرف دارسو الفلسفة الأخلاقية في الإسلام مكانة "أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، أحد أعلام القرن الرابع الهجري، وقد تميز إنتاجه في الفلسفة والتاريخ بطابع خاص، إذ تدل نظرته التاريخية في كتاب "تجارب الأمم" على وعي كبير ومعرفة واسعة بالتاريخ "أما كتابه تهذيب الأخلاق فهو أشهر وأهم كتبه على الإطلاق لذا نعرض له اليوم.

يعد كتاب "تهذيب الأخلاق" لابن مسكويه وقد كتبه ليعالج مشكلات الحياة والسلوك وليصل بالمطلع عليه إلى السعادة المنشودة وقد تأثر في كتابه هذا بكتاب "الأخلاق" لأرسطو، وفلسفة الأخلاق هي الأصول الأخلاقية التي يشرعها الفكر للسلوك الإنساني، مما يرجع الأمر فيه إلى فكر المفكرين والحكماء والفلاسفة. ومع أن شخصية "ابن مسكويه" شخصية فيلسوف مؤمن بنزعة الاختيار والتوفيق السائدة في كتاباته إلا أنه يكتب من أجل الوصول عملياً بالإنسان إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة، ويرى ابن مسكويه أن للنفس ثلاث قوى، كل واحدة منها قد يسود أو يحسن استعمالها لظروف وأسباب متباينة فقد تجنح نحو الإفراط أو تهبط

نحو التفريط فيكون في كلا الأمرين شراً ورذيلة، وقد تكون وسطا معتدلة فيكون هذا خيراً وفضيلة.

فالنفس عند ابن مسكويه لها إذن ثلاث فضائل رئيسية بعدد هذه القوى وتنتظم كل فضيلة منها فضائل جزئية تعود إليها، لذلك يقرر ابن مسكويه أن أصول الفضائل هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، ويرى "ابن مسكويه" أن للنفس فضيلة أخرى هي أشبه بها، وهي التشوق للعلم والمعرفة، فالفضيلة عند "ابن مسكويه" هي المعرفة والرذيلة هي الجهل، وفي ذلك يقول: "إن من الناس من لا يدري كيف يحسن إلى نفسه، التي هي محبوسة، فيقع في ضروب من الخطأ، لجهله بالخير الحقيقي، أما من عرف لنفسه كرامتها واختار لها الخير الحقيقي الذي يناسب جزءها الإلهي، وهو العقل، فقد أحسن إليها، وأنزلها في الشرف الأعلى، وإذا كان بهذه الحال فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات".

أما السعادة عند "ابن مسكويه" فهي الخير التام في نفسه، وهو في ذلك متأثر بآراء فلاسفة الإغريق لكنه يخالفهم في أن السعادة عنده ليست في المتع الحسية" التي لا يطلبها إلا الرعاع والعامة وطلاب التجارة والكسب حتى في العبادات"، فالسعادة عنده هي في أمر واحد وهو "الحكمة" التي يستحق من يحوزها أن يسمى فيلسوفاً.

ومن المسائل التي عرضت لابن مسكويه مسألة الموت.. وقد أفاض في "تهذيب الأخلاق في الحديث عن الموت، والخوف من الموت في محاولة لأن يملأ قلوب معاصريه بالطمأنينة فهو يرى": إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن يدري؟ ما الموت على الحقيقة أولا يعرف إلى أين تصير نفسه.

أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم وثور "ويستطرد" ابن مسكويه" في ذكر دوافع الخوف من الموت ثم يرد عليها جميعها قبل أن يختم تحليله بقوله: "لقد ظهر ظهورا حسيا أن الموت ليس رديئا كما يظنه الناس، وإنما الرديء هو الخوف من الموت، وأن الذي يخاف منه هو الجاهل به وبذاته، أما الروح فجوهر لا عرض وهي باقية بعد الانتقال" وقد توفى "ابن مسكويه" ببغداد عام ٤٢١هـ عن عمر يناهز التسعين عاما، قضى أغلبها في تحصيل العلم ثم في التأليف والتعلم فهو ذلك قد جمع بين فضيلة العقل والمعرفة والسعادة الناتجة عن الحكمة.

مداواة النفوس لابن حزم

"مداواة النفوس" هو الاسم الذي اشتهر به كتاب "الأخلاق والسير" للإمام أبو محمد بن حزم وقد حققه د. الطاهر مكي، وهو أيضاً محقق كتاب ابن حزم الشهير "طوق الحمامة".. أما "ابن حزم" فهو الإمام أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم وهو قرطبي المولد.

وقد قال عنه القاضي الأندلسي "أبو القاسم بن أحمد": "كان أبو محمد بن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة بعلوم اللسان (يقصد اللغات)، وأوفرهم حظاً من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار"، والمطالع لقائمة مؤلفات "ابن حزم" يدرك أن القاضي أبو القاسم لم يبتعد عن الحق بقوله هذا "فمؤلفات ابن حزم الكثيرة منها "الأنساب" و"الإمامة والخلافة في سير الخلفاء مراتبهم" و"شرح حديث الموطأ" و"كشف الالتباس فيما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس".

وقد جاء "ابن حزم" إلى الدنيا في وقت يحتاجه وقد وصف حال الأندلس في عصره قائلاً: "إن الناس لم يعودوا يعرفون الحلال من الحرام في الكسب "أما علماء الدين فهم: "أصبحوا عوناً على الفساد والطغيان" وصاروا يأكلون على كل الموائد، ويتنافسون في

مضمار الشر.

وقد سبق ابن حزم علماء المسلمين إلى إقرار المفهوم القرآني في قيام المعرفة في الإسلام على أساس العقل والقلب معاً، فهو يقول: "المعرفة تكون بشهادة الحواس، بأول العقل، ببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس".. ويقول "من أبطل العقل فقد أبطل التوحيد، إذ لولا العقل لم نعرف الله عز وجل".

أما عن كتاب "مداواة النفوس" فقد بين ابن حزم في مقدمته ودوافع تأليفه قائلاً: "جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة، أفادينها واهب التمييز تعالى بمرور الأيام، وتعاقب الأحوال حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس": وأنا راج من الله أعظم الأجر لنيتي في نفع عباده، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم"..

وقال ابن حزم في الباب الأول "مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق": "تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في طلبه فلم أجد إلا واحداً وهو طرد الهم، ويبين أن لكل إنسان لذة ما، وأن هدف كل اللذات هو طرد الهم، وقد وجد "ابن حزم" لذته في "التوجه إلى الله –عز وجل– بالعمل للآخرة" وينصح الإنسان قائلاً: "لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله".

وفي باب "الأخلاق والسير" يذكر: "ابن حزم " بعض عيوب "النفس" مثل "الكبر" و"الغرور" ويقول "لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً" ولا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ويذكر بعض عيوب نفسه في نوع من ممارسة النقد الذاتي ويبين كيفية معالجته لأدواء نفسه فيقول: "كانت فيَّ عيوب فلم أزل بالرياضة. واطلاعي على ما قاله الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء في الأخلاق ومداواة النفس، أعاني مداواتها حتى أعانني الله– عز وجل على أكثر ذلك".

وفي باب "الصداقة" يقول: "لا ترغب فيمن يزهد فيك، فتحصل على الخيبة والخزي" ويقول: "لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذله من نفسك، فإن طلبت أكثر فأنت ظالم" وفي باب "غرائب الأخلاق" يطالب بعدم التسرع في الحكم على الناس حسب مظهرهم ويطالب بأن تتطابق أقوال وأفعال الإنسان وأن يعلى الإنسان من شأن العقل والعلم والأخلاق فنراه يقول: "إنما العقل أساس فوقه الأخلاق سور، فحلِّ العقل بالعلم وإلا فهو بور".. وأخيراً فإن آراء "ابن حزم" تشكل مفهوما متكاملا للإسلام ولم تبل جدة آرائه حتى الآن ولم تزل بعض القضايا التي أثارها تثار حتى الآن مثل مطالبته بالآتي:

– لكل مواطن حلتان ومسكن.

- **الأرض لمن يزرعها.**
- **التعليم إجباري على ولي الأمر والمواطن معاً.**
- **المرأة والرجل متساويان في العلم.**
- **جواز ولاية المرأة للقضاء.**

الفهرس